سيرة الانتهاك

أيمن ماردیني

[رواية]

إلى وَلَدَيَّ رامة وسامي

لكي تتحسس جمال طفولتك الحقيقية يجب أن تفقدها أولاً. [أوشو]

*

لا أحد يكتم السر جيداً كالطفل. [فيكتور هوغو]

*

عندي الأخطاء كلها، تلك ميزتي الأساسية. [جون أيدرن هالييه]

*

وإن تَك طفلاً. فالأسى ليس بالطفل. [المتنبي]

*

لا تقصص رؤياك على إخوتك، فيكيدوا لك كيداً. [قرآن كريم]

1

كانت تمارس بي الجنس، ولم أبلغ السابعة بعد.

كانت تتفجر أنوثة، تعانق، تتحسسني، تكتم فمي بلسانها اللزج الرطب، وكنت طيعاً غير مستباح، غير البلوغ المبكر الذي آلمني فيما بعد.

كثيراً ما كنت أصحو، وجبلُ جاثمُ فوق صدري، أو غولُ يجرجرني فوق رمال من عرقٍ، ونار، ووجهُ محمد يتفرسني وهو غاضبٌ مني، مستنكراً ما يُفعل بي.

أحقاً ترى؟ أم شريعة التأنيب هي عُرفك؟

في الثلاثين كانت ولم تتزوج بعد. فقط تمرست من خلالي، ومن جسدي اكتشفت أسرار الشهوة، ولم تعلمني سوى الاستكانة لما يعتمر داخلها. سمراء كانت، مجعدة الشعر، وأسود كان. مكتنزة الجسد نوعاً ما، وليست بممتلئة. جميلة الروح، ذات حساسية عالية، تبكيها أغنية لعبد الحليم، أو مشهد فراق سعاد حسني لحبيبها أحمد مظهر في فيلم نادية. وعند أول خميس من كل شهر لا تكفيها مناديل البيت كلها، وذلك عند أول آه لأم كلثوم في حفلتها الشهرية على مسرح الأزبكية، وهي تشاهدها على التليفزيون مع باقي أفراد العائلة.

أحبت كثيراً، وعشقت كثيراً، وتضرعت إلى الله كثيراً، ومزقت كل الملابس التي تكشف جسدها الفتي، وشهوتها العارمة، ولكنها عادت مرة أخرى إلى فراشي، وهي تبكي شهوة، وتنتفض منها.

عرقي وخوفي من الانكشاف على السر وسوائلها الفائحة المتمرغة في الحرام ما يعتمر في الذاكرة.

سمعتها تتمتم مرة: *ربي كما خلقتني أنثى وكما خلقت الشهوة والحرام وكما خلقت الشيطان والجنس والجحيم وكما خلقت الثديين وما بين فخذي ومؤخرتي والفراش والمحارم وكما خلقت الغواية والحب والأسرار والليل والبكاء والفراق والاشتياق والغواية والبراءة والـ...*

ربي لمَ خلقتني؟ لمَ أنكرتني ثلاثاً، وأنكرت أنوثتي الفائحة عند أول آه؟

وفي الصباح، لا تراني ولا أراها، وكأن ما حدث لم يحدث. ليست هي، ولست أدري مع من؟ فقط أضغاث، أو أحلام محرمة. حتى السر ما بيننا ليس له مكان للاستفاضة به، وتمارس الحيرة، وتعود للتفاصيل الصغيرة التي تملأ بها الدقائق والساعات، وأعود أنا إلى الطفولة، إلى مخبئي، وفي داخلها سر كبير يثقلني. يثقل كاهل الطفولة فيَّ.

وفي صباح آخر.

تفر هي من القيمة الفائضة للمشاعر التي أحييتها في داخلها، ولا أعلم ولا تعلم هي من كان البارحة. جسد من؟ أهو أبي وشعر صدره الأسود الكثيف، ورائحة إبطيه اللزجة، صوته الهامس في أذنيها ألا تمانع أكثر؟

فهو يريدها، وهي خائفة من أمي، أو لا تريده، أم تريدني أنا فقط، وبراءتي التي تشبه براءتها، فهذا حق مكتسب لها في، وليس أبي، وأتمنى موته. هي لي أنا. ألا يكفيه أمي، وانتزاعها مني؟ أيضاً هي؟!

ولست أدري أغفوت على دموع ألم، أم سقطت نائماً وحلمت؟ والعرق يندي جبيني خزياً، وخيانة، ومفردات جد فريدة على قاموس طفولتي.

وفي صباح آخر.

تعلم أمي، أو لا تعلم. فهي ليست المرة الأولى، وليست المئة، وكلهن لي، ولسن لأبي.

وتقول أمي: خيانة الزوج، أي زوج مع نساء كثيرات لا يهدد المرأة، بل أكثر ما يهدد الحياة فيها والعالم هو خيانته مع امرأة واحدة، وفقط واحدة دون الأخريات. لأنه يبحث عندئذ عما ليس في زوجته، ولن يوجد فيها. أما من يعرف نساءً متعددات أخريات، فهو يبحث عن شهوة تأتي دائماً سريعا، وتختفي، وتنسى عند وصوله، وأيضاً سريعاً.

و في صباح آخر.

مسكين أبي. مسكين، وماذا يفعل في الإغواء الذي ينهش جسده طوال يومه، ويلقنني الدرس الأول في الخيانة التمتمة الليلية العرق الممتزج بالخوف من الانكشاف من المعرفة من الوضوح الغير بريء.

و في صباح آخر.

شيء ما يدور حولي. لا أفهمه؟!

شيء يشبه رائحة الرماد. أبحث عن حريق ما هنا، أو هناك.

ليس ثمة شيء!

ليس ثمة حريق!

هي ليست هنا. طوال الليل أتحسس مكانها بجانبي، وما يزال بارداً، وما يزال شيء ما ينتظره صدري ليثقلني. أتحسس عضوي الخامل بعد، وليس ممن يتحرش بي، أو ينتهكني. الرائحة تملأني، والرماد يملآ المكان. أمي. أختي، وخالاتي الثلاث ينظفن البيت. يغسلن الأرض، والحيطان بالماء، والصابون الممتزج بالكلور سبع مرات. ينزعن أغطية الكراسي، الملاءات، الستائر، وما زالت الرائحة لم تنتزع. أشعلت أمي البخور الهندي المحوج بالمسك، والعود، والعنبر في البيت ثلاثة أيام لم تنطفئ، وما زالت الرائحة.

رائحة رماد إثر حريق ما.

وليس من حريق.

ولا أفهم؟

لعلها خواطر من رماد تملأ رأسي؟!

وعندما زارتنا جارتنا اليونانية استير، استنكرت رائحة البيت، وقالت إنها أتت تحمل اعتذاراً من قبل الجارات الأخريات، اللائي يكن لأمي كل المودة، وطول العشرة، ولكن الرائحة تناولت بيوتهن، ومصدرها بيتنا، وذلك واضح للعيان. عندئذ أمي، وبكل حنكة ودراية، أرسلت ردها المبطن أيضاً إلى الجارات. أن الرائحة مصدرها بيتها، وأنني السبب في ذلك اثر حريق شب في غرفتي، وأنا ألعب بالكبريت، ولكن أبي عاقبني بالجلد عشر جلدات إثر هذا.

سوط إثر سوط إثر سوط تلك النظرة التي لا تفارقه وهو يسوطني لا تفارقني حتى الآن ليست قسوة سخرية هي سادية مبطنة لذة جنسية حالة انتشاء وصول إلى الذروة بلوغه للرعشة يهدأ يبدأ في الكلام الوعظ وما قاله محمد، الله، الأنبياء والصحابة.

قالت خالتي العذراءُ بعد، وهي تنظر إلى لقمة في يدها على الغداء إن الرائحة تأتي من العث في الفراش، وقبل بزوغ شمس يوم جديد، كانت أمي ومعلم التنجيد يعيدان تجديد كل فراش البيت، بعد أن تخلصت من الحشو القديم، وبعد أسبوع كامل كان فرش البيت جاهزاً، ومبلغ تجاوز العشرات من الجنيهات قد تناوله المعلم فرحاً، ولم نكن كذلك.

الرائحة لم تفارق البيت، والرماد في أنوفنا شبه دائم.

قالت خالتي العذراءُ بعد، وهي تنظر إلى لقمة في يدها على الغداء أن الرائحة تأتي من الطلاء الذي قدم، وعفا عليه الزمان، وقبل بزوغ شمس يوم جديد كانت أمي تشير على معلم الدهان أن يزيل كل الطلاء القديم، ويعاود طلاءه بلون جديد، أبيض، ناصع، لامع، ليشع على البيت فرحاً وبهجة، ومبلغ آخر من النقود دُفع قسراً من أبي إليه، وتناوله مغتبطاً، ولم نكن كذلك، بل ازداد علينا الغم والقزم، إذ أن الرائحة، رائحة الرماد لم تزل، وكأن هسيس النار لم ينطفئ بعد.

همت بالقول خالتي العذراءُ بعد، ولكن أمي أشارت عليها بالسكوت، وهمهمت بكلمات غير مسموعة، مفهومة من قبلنا، ألا تعاود الكرة وتحكي، أو تشير علينا برأي آخر.

و هنا قالت أختي الكبرى: وكأن الرائحة تخف قليلاً، ولم تعد كالسابق.

و لكن ذلك لم يكن، بل هي الرائحة صارت في أنوفنا أكثر ألفة، وغير مستحبة.

ليست هنا. ما زلت أبحث عنها. في كل الغرف. في العلية لعلها تختبئ مني. في السوق تأتي بشيء ما لأمي. في المشفى لعلها مريضة، أو أن الله قد أخذها في

غفوة مني، وفي غفلة فعل آثم لي. إحدى غفلاتي. ربما؟ وأبكي، والكل لا يخبرني أين هي؟ أين مني الآن؟

كنت هشاً. رقيقاً، وضعيفاً، كرمش عين سقط سهواً، أو زهرة ربيعية. طفل مكتمل الطفولة، قطرة ندى على خد. أغنية سائحة في سماء العالم، وليس من سابعة تعلوني. أحن، وأشتاق، وأبكي بحرقة على فراقها.. أتمرغ في فراشي ليلاً، وأنزوي في غرفتي نهاراً. أبحث. أبحث عن آثارها في البيت. هنا تأكل، وتلحس أصابعها من آثار الطعام، وأحب أن أراها هكذا. هنا تستحم، وتفرك جسدها البض الأملس، والرغوة تغطيها سحاباً أبيض يعلو بي، وهناك في الزاوية، وأمام التلفاز تجلس، وتتابع أفلامنا المصرية القديمة، وأبطالنا أحلامنا. نحن هم، ونسى معهم من نحن، ولا نرانا. هنا خزانة ملابسها المرتبة بعناية فائقة الحد، وروائح الصابون البلدي تهفهف، تملأ الأنوف، وعند أول حركة، وتناول قطعة منها. أي قطعة. ينتشر عبق الصابون، ويحضر جسدها من الذاكرة.

ها هي البيجامة الحمراء الحرير التي أحبتها. مهترئة قليلاً، وما زالت تحتفظ بها. فقد اشترتها بعد أن خبأت الكثير من النقود لتحصل عليها. فستان السهرة البيج، والألماسات المنثورة بعناية. فهي من أضافتها بيدها لتعطي رونقاً آخر، أو لمسة فنية خاصة، كما كانت تحب أن تقول لنا، وتضحك في انتشاء المتفوق. ملابسها الداخلية المنتقاة بلذة، وسرية، ومرتبة حسب الألوان، كل طقم مطويّ، ومتداخل في بعضه، السوتيان والكيلوت، وأيضاً الشلحة الداخلية. هذا من لون واحد، وذاك ذي لونين، ولكن كلٌ مطرز بخيط من لون القطعة الأخرى. هذا معرّق بالورود، وهذا مقلم بألوان عدة، وذاك متداخلة نقوشه، وألوانه في تموجات صاخبة. أما هذا الذي في العلبة القطيفة الحمراء فهو المميز عن كل هؤلاء. فهو الأبيض. غالي الثمن.

الخاص باليوم الكبير. يوم العرس، والزواج بمن تحب. اشترته من محلات صيدناوي شيكوريل. أمد يدي، وأتناول إحداها، وأبدأ في تشمم رائحتها. علها ما زالت في داخله، أو أثر منها. مجرد أثر. أنتشي، وأبدأ في وضعه على جسدي.

آه كم تحبين التفاصيل أيتها الشقية المتوارية عن ناظري.

أما الروائح، وأدوات الزينة فهي في خزانة أخرى مستقلة، بعيدة عن ملابسها، حتى لا تنتقل الروائح للملابس الأخرى، وتتداخل عند استعمال ذلك العطر دون سواه، والعقود، فهي متراصة، مع الأساور، والخواتم، والتمائم، ومن كل الألوان كانت، وجميع الأنواع الصدفية منها والفضية. البلاستيكية والجلدية، وأحياناً الذهبية ذات العيار الخفيف. دائماً لديها المفضل، والمحبب، ولكنها تنتقي كلاً منها بحذر شفيف، خفي، أنيق، ولا يخلو دائماً من اللافت للنظر، وأحياناً اللافت للرأس عندما تمشي في الشارع. أتناول أحد الأطواق، وأبدأ في التخيل كم هو رائع على جيدها. أمد يدي الأخرى إلى إحدى الأساور، والخاتم ذي الفص الكبير الأزرق، وأراها أمامي تضعه في إبهامها. الخلخال الذهبي يلمع. يأخذني في نشوة عالية. رنته تسحرني في كاحلها، وهو يناديني كجسد محترق شهوة. أنتشي، أعلو، وأبدأ في ارتدائه كما تفعل هي مع الخاتم، والإسورة، والوشاح الساتان الأخضر.

وكما الآلهة في لحظة أكون أنا، وأكون فاتناً في الوقت ذاته.

وتهمس فاتن في أذني: **بخفة هواء. بإيقاع موج هادىء. برعشة ضوء شمعة ملتهبة. أنأى قليلاً. عد ثانية. تلمسني أكثر. بثبات. ببطء. التصق بي. تناول نهدي بين شفتيك. لا تلمس هناك. ربما فيما بعد، تمرغ برأسك بين نهدي. إني أتنفس عبق شهوتك. أدخل بي الآن. هل مضت الرهزات**

الخمس الأولى؟ ماذا لو عشرة. مئة. ألف؟ على أبواب الإيقاع المنتظم خطواتنا في الثبات. ماذا لو؟ وتأتي. وآتي.

فما هو نشوة لي. هو نشوة لها. رغم أني لم أبلغ صلواتي الخمس بعد.

وبدأت أمارس ما هي عادة في الليل أيضاً في النهار. ما هو حنو وضم وألفة. ما هو شعور بالامتلاك لا يدانيه إحساس آخر. أنا الملك. أنا كاتم الأسرار لذي المدلل. أنا الذي يعرف، ويثقل جسدي الندي ما هو أكثر مني.

وعلي. ابن خالتي من كان يشاركني تلك اللذة السرية. جررته ذات يوم بعيداً عن عيون الأهل والأقارب، وفي لهفة، وتثاقل أنفاس أخرجت صورة صغيرة مطوية، وتكسرات الثنيات كانت واضحة جلية عليها. قصصتها من مجلة حواء. كانت لسعاد حسني مرتدية مايوهاً أزرق. كانت رافعة يدها. تسند رأسها. مائلة بجسدها على الحائط. تنظر إلي بغواية ما، وتناسق جسدها يكاد ينسيني من هي.

فقط في الذاكرة جسد فاتن الذي تمرست به، وقلت: ما رأيك؟ قصصتها من المجلة. عل أحداً لا يأخذ بالاً.

أخذها مني بيد مرتعشة، وأخرج عضوه على الفور، وبدأ في دعكه. صغيراً كان منكمشاً، ومطهراً. أحمر اللون. رفيعاً. كأنه قضيب طائر، غير أنه لم يكن ينضح برائحة العتم، ورطوبة الليل.

استنكرت ما يفعل.. إلا أنني انجذبت إلى ما يحدث في ضوء النهار، وليس تحت ستائر الليل فقط.. أجبرني على خلع ملابسي، وبدأنا في اللهو غير البريء.

بل هو البراءة، الرمز الوحيد في حياتي. قال: **بقسوة أكثر. بحركة مستقيمة. من أعلى إلى أسفل. حرك يدك على قضيبك، والمس رأسه. اعصره**

جيداً. مرر يدك على فخذيك. أدخل إصبعك هناك بعد أن تتحسس ذلك المعتم. هناك ستسر أكثر. أدخله مرة واحدة. ادفع إصبعك، ولا تفزع للدم أو للالم. سرور لا ينتهي. ليس له نهاية. هكذا حتى تتعب أو تشعر أن أحداً من أهلك قد أتى.

رائحة علي لا تشبه رائحتها. مذاق جسده على لساني لا يشبهها. ارتباكه، وعدم تمرسه يضايقني. إلا أنني منجذب لما يحدث. لم؟ لست أدري؟!

وبدأنا في ممارسة اللعب. لعبة الانكشاف على المجهول. المعلوم لدي.

دائماً كان الخبر متقدماً لدي على المبتدأ في جملة الحياة.

قابلته في إحدى زياراتي إلى منزل علي.. كان عرفان هادئاً كما دائماً.. عرفان الفتى الحنون، الوسيم، الأنيق. لا يعطي بالاً لألعابنا، بقدر ما تأخذه الألوان، الأشكال، والتكوينات الجمالية. حاولت جره بعيداً عن العيون عدة مرات، ولكن محاولاتي وعلي باءت بالفشل. كان غامضاً. بل ظننت كذلك، بل كان كتوماً. ينتهكه شيء ما. لم أستبنه آنذاك. كان يرسم. دائماً أراه وفي يده ورق وألوان. يرسم وهو يتمتم بكلمات لا تكاد تبين، إلا أنها ما كانت تقوله شخوصه إلى بعضها البعض على الورق. هذا طير يفر من زاوية ما. قفص ما، أو سجن ما، وذاك شجر يملأ مساحة الأبيض على الورق، ملتف، كثيف. تختبئ خلفه الوجوه المشدوهة. هذا طفل يبكي، ينزوي في أسفل الورقة، وتلك امرأة مبقورة البطن. يتدلى منها عناكب وجراذين. ذاك رجل مشعث الشعر، غير حليق. ملابسه تنم عن مظهر رث. مفتوح قميصه، متسخ، والبنطال قصير نوعاً، وذو رقع واضحة، والعصا بيده مرفوعة في الهواء، منتصبة، قائمة كتهديد معلن، شرير المقصد.

ترى أكان الرسم واضحاً لي وضوح حدث ما شاهدته ذات وقت؟ أم ما قاله لي عرفان رفيق الطفولة، وما تيسر من الصبا في ذات انتهاك لم يبرح المخيلة؟

قال: جردني من ثيابي. نزع عني الحياء والخجل ذات نهار. أصبحت دون غطاء أحتمي به من ضوء شمس أغرقتني في الخطيئة، وعلى مرأى منها، ومني، ومن العالم. لم يحرك أحد ساكناً، والكل لم يعلم فقط، بل الكل اشترك في الجريمة الانتهاك على الجسد والروح، بل على الماضي والحاضر الذي غرقت فيه دون إرادة مني، دون وعي، ودون أسلحة يمتلكها طفل جرد من الطفولة.

لقد أعلن، وعلى الملأ أنني لست ابنا شرعياً له، وأن ما أتى بي إلى الحياة هو فعل اقترفته أمي ذات طيش، وأنه ليس بمصدق، ولكنه تأكد، حيث أن التحاليل الطبية أثبتت، وبكل يقين أنه غير صالح للإنجاب، ولم يكن يوماً، ولن يكون أبد العمر. يعلم أنه قد طعن في رجولته، وهذا جرح للكرامة كرجل، ولكنه يرفض أن يكون الزوج المخدوع، أو الشيطان الأخرس. ربما يقبل بتبني ولد فقد أبويه، ولكنه يرفض خداع زوجة تلبي غريزة لم ينعم الله عليها بها. ربما يوافق على أبغض الحلال، لترضع طفلاً من صلب رجل عرف كيف يضاجع، ويأتي بذكَر يخلد الذِكر، وتأتي ببرهان أنها امرأة كاملة الأنوثة، غير ناقصة. ربما.

ربما يسكت على ضعف مَن الله به عليه، مقابل سكوت من زوجة ترضى حباً، وكرامة، لعشرة طالت أم قصرت، فهي تقبل طواعية، وهو على انكسار أمامها، ولكن فقط بين جدران غرفة النوم، وعلى مخدع الزوجية. ربما، ولكنه لن يرضى برائحة عرق رجل ضاجع زوجته لشهوة في نفسه، وهي لتكمل صورة الزوجة الكاملة، المكتملة أنوثة، وأمومة غير ناقصة.

ما قاله عرفان لي وما لم يقله وما قاله تلميحاً دون التفاصيل وما قالته عيناه لي وما قالته أحلامه وصراخه كلماته المنفلتة في كوابيسه ما قاله عرفان في رسومه وانزوائه في الألم الصامت منتحباً وتألمه الواضح في قوله فاضحاً ما رأت عيناه ويعجز عنه القول على ما حدث ويحدث وما سوف يحدث والقول حتى القول أصبح فعلاً لانتهاك له، ولي، ولك أيضاً.

قال: وفي ليلة ذات انتهاك طال كل التفاصيل استيقظت، وعلى جلبة هائلة، وأناس من حولي، وفي كل أرجاء البيت. ذاك يحملني وأنا في أول اليقظة ويركض بي، وذاك يصرخ في الآخرين أن أبلغوا الشرطة، وهذه الجارة تصرخ بهستيرية، وأخرى تبكي. هذا ينزعني من الآخر، وهذا يركض خارجاً يسأل أن يأتوه بغطاء كي يغطي جسدها الذي رأيته بطرف عيني، ملقىً على الأرض. شعرها يلف عنقها، ويدها تمسك بصدرها، والدم في المكان. الدم الدم ما يزال طرياً أحمر قانياً يسيل من بين الأصابع يسيل من الجسد يسيل من الروح يسيل نازلاً على الأرض يسيل سائراً في أرجاء البيت يسيل يدور في الغرف يسيل زاحفاً يسيل باحثاً عن شيء ما عن شخص ما. عني أنا. عرفان. ابنها.

وللدم رائحة أيضاً، ليس فقط الانتهاك والحزن.

وفاتن.

فاتن، ابنة خالي مازالت في الغياب. تحضرني صورتها دائماً في المكان. تزحف إلي بجحافلها. تملأه بانحناءتها، وخطوط تفاصيل جسدها. تجتاح رائحتها سريري، وعضوي الذي يحن إلى أصابعها اللدنة الصغيرة وهي تداعبه.

تحضنه بين كفيها، وتضمه متضرعة إلى من هو إله. إلى من زرع الشهوة، وأظهر العورة. إلى من قطفنا على مرأى منه الثمرة، ولم ينهنا. لنزداد رغبة، ونشتاق إلى الرغبة، ونكبتها أيضاً تلك الرغبة الكامنة. الملتحفة خلايا الروح.

والرائحة ما تزال.

وسحب الدخان لم تغادرنا.

وفاتن في المخيلة، في الحضور شاخصة، في ظهورها لي، لا أدري لمَ؟

ترى أكانت فاتن رائحة الرماد؟

2

ألق الكلمات في اللغة العربية دائمًا ما كان يثيرني.

تعلمت المفردات في اللغة من الإيحاءات الجنسية التي استهوتني في يفاعتي. كم من مرة استثرت. تهيجت. قذف قضيبي ما يحلو له من اندفاقات شهوية اعترتني عند سماعي تلك الكلمات المبتذلة. دائما أستعيدها داخلي في الخلوة، واستلذ بالسرية المستعادة منذ فقداني روعة فاتن.

استعدت ألقي بالكلمات.

وكبرت، ونما الشغف في داخلي للنمل الأسود المتراص.

في الغرفة السرية لوالدي تقبع آلاف الكتب. منها السيرة النبوية وأصول الفقه. منها أشعار التصوف إلى الفتوحات المكية. الدواوين الجاهلية والتغزل في الفضائل النبوية. أيضا كتب التاريخ والفلسفة وعلم النفس وأصول الإتيكيت والسياسة المعاصرة، وعشرات الكتب التي تحوي لوحات لمايكل أنجلو وليوناردو دافنشي وبيكاسو وسلفادور دالي.

أما الكتب الصفراء القديمة فقد استهوتني أكثر. لونها، وتفتت أطراف صفحاتها بين أصابعي. رائحتها المنبثقة، والتي تتناثر مع ذرات الغبار في ضوء الشمس القادم من النافذة في الصباح الباكر، وعند تسللي إلى غرفته، وهو نائم وأهل البيت جميعا.

إذ دائما ما كنت استيقظ مبكرًا في نهارات الصيف الحارة، وأتسلل إلى هناك. أختبئ تحت طاولة مكتبه الخشبي القديم ذي الرائحة المفعمة بالأسرار، والاكتشافات، وأختار كتابا ما، وأبدأ في فك طلاسم الحروف،

وأتخيل ما يحلو لي من الآخر. من الآخرين. من ذات لا تشبه ذاتي، بل تكاد تكملها، وتكون نصفي الآخر، والإيقاع إن كان، فهو على وترين منفصلين. متحدين بآلة واحدة ألا وهي أنا، وجسد الأنثى.

كان بحثا، واستقصاء، وعودة إلى...

فاتن.

أين أنت في الكلمات تلك التي أمامي؟

أين أنت من الصور المنفلتة من السحيق؟

أتناول كتاب الصور الملونة. صوري السرية، وأبدأ في تصفحه. صور أنيقة لرجال ونساء عرايا. في وضعيات حميمة تكاد تبين كل شيء. ضم وعناق. قبلات موزعة. أيد تحن على الآخر. أرجل مسنودة بالأيدي. قضبان مشرعة. مزخرفة، وفروج حمراء قانية. متأهبة للولوج. حلمات هائجة. منتصبة. آلهة تتضاجع والحوريات تحوطهم من كل صوب وحدب. واضعات أيديهن على صدورهن، أو يؤهّلن فروجهن لما سيأتي.

رسوم شهوية منقوشة تفتح الطريق إلى الصوفية إلى التعبد على أبواب العري المتحد مع الروح المتعلقة بالحواس الخمس من سمع ولمس ونظر وذوق وشم والتماس الوثيق بين العضو الحاسة وغرضه والوصول به إلى الشعور الأعلى إلى النيرفانا.

أطوي الكتاب، والمخيلة محتشدة بالحدث. كم من السنين بقيت عليه تلك الشهوية في أجساد الرجال والنساء. انتصابات دائمة، وفروج مهذبة. مضاجعة دائمة لا تنتهي. منذ القدم بدأت. منذ البدء. إلى أبد الدهر في صيرورة غير منتهية. أكاد أستمني، ولا أكمل. تجلي اللحظة يأخذني إلى أكثر مما هو محض غريزة. إلى أكثر مما هو مجرد صور ورسوم، لأغرق أكثر في

التجريد. في التوحد مع تداخلات الألوان والأشكال. الغيوم اللونية والحركات الهائمة للصور. لتتشكل ألحانا ونغمات، وموسيقى، وأستمني مرغما، وأستمني ثانية.

لعلها الموسيقى ملجئي، ومثواي؟

يا ليتها العلامات المدونة انتشالي من الغث الغميق؟

انها الموسيقى. الألحان، وتنويعاتها في موسيقى الصباح المدرسية. نشيد الوطن الذي نردده كل يوم، وإيقاعات الطبل العالية الخارقة للقلب، ومنظمة ضرباته. عبد الحليم، وفيروز. إذاعة أم كلثوم اليومية في الراديو. عبد الوهاب، وفريد الأطرش، ونجاة الصغيرة. موسيقى الروك اند رول في البيت، وأنغام الباسا دوبل والرومبا والكونغا والراسبا والفالس، والتي كانت تضيف أحيانا في البيت جوا من البهجة، والفرح. كان الرقص الإيقاعي الجميل بيني وبين أختي، وبين أختي وزوج خالتي، وأحيانا أخي الأكبر. كل ذلك أضاف لدي شيئا ما لعله الحس العالي بالخطوات، وإيقاعها تحت قدمي.

ذهبت إلى أستاذ الموسيقى في المدرسة، وبدأت في مقايضته، بل مراهنته على الموسيقى مقابل أن يصمد أمام طلاوة شقرتي، وابيضاض بشرتي الملوحة بالحمرة. لعبة أخالها قد لعبت من قبل، وأخالني أتقنها جيدا.

أمي على الفراش مريضة. خارجة للتو من المشفى. لقد تخلصت من جنين آخر لم ترغب به.

قالت: كفاني أطفالا. الله لم يحرمني الصبيان، أو البنات. أربعة يكفي. يكفيني ما عندي.

غير أن أبي لم يستطع البوح بما هو يخالف الشريعة. يعلم أنها حامل، ويرفض الإجهاض، غير أنه يرفض أيضا مزيدا من الأطفال. دائما أمي في

حالة حمل، أو إجهاض. دائمًا أبي يستنكر حملها، ويرفض إجهاضها علنًا. موافقًا ضمنيًا معها، ويستزيد من الجنس. منها، ومن غيرها.

ترى ماذا تفعل في عدم وجودها بالبيت؟

لا تقرب الأخريات من نساء البيت. ابنة خالتي فاتن. مربيتي. خالتي العذراء بعد. خادمة البيت. والكثير منهن في أحلامك. تهويماتك. أنا هنا البديل، ولا تقرب الأخريات. أنا هنا في فراشك بديل لأمي، وانتهاكك لها. لا تقربهن كلهن. أنا الأضحية. نصل سكين على عنقي. نصل "تلم"، وليس حادًا. ليس بحد شفرة تبتر وأنقضي وتنقضي الحكاية. هي اللحظة لا تنتهي. معلقة هي في الأفق. في الزمن. في الوجود، وليس من انتهاء، أو قطع. أنا شبه عار في فراشك، واليد المشعرة تنتهكني. تفترس الجسد المنتهك أبدًا. الغارق في تاريخ الملذات.

يد ترتعش للقتل، والقتل صورة مخبأة في ذاكرة مرآة الوجود. قتل، أو كبش فداء يؤتى به، وزمن المعجزات في انقضاء.

لا. ليس ما حدث الآن قد حدث بالفعل.

أو هو فعل حدث يتذكرني؟

أهي النية لأغرق، وأكثر عميقًا في تاريخ الكره. أم الانتهاك التعمد.

لم أتكهن بالعمر في ذلك الوقت،إلا أني أذكر أنه كان كبيرًا. أصلعَ. الشعيرات البيضاء ظاهرة للعيان، غير منتشرة بكثرة. كلماته تحمل لثغة محببة نتيجة أسنان أمامية غير منتظمة. أسمر البشرة. رفيع. طويل. تميل ملامحه إلى نعومة قسمات غير منفرة، أو هكذا رأيته أول مرة. يتقن العزف على البيانو، وبحرفة عالية.

كم كنت أحب يديك واستدارة أظافرك. طويلة متناسقة ناعمة أصابعك، ورائحة ماء الورد تفوح من راحتي كفيك. تنتقل بين أصابع البيانو بسلاسة وخفة. تتطاير على إثرها فراشات وتتشكل غيوم، وعلامات السلم الموسيقي ألحان كانت تتراقص في أرجاء قاعة الموسيقى.

آلة الكمان هي ما اختير لي لأتعلم الأبجدية الموسيقية، بل ليلتصق بي أكثر. يحضنني أكثر. يلفني بيديه، وأكثر. حتى أكاد أتشمم رائحة شهوته تملأني.

الموسيقى مقابل الأحضان والقبلات والملامسات التحرشات الانتهاكات.

أليس انتهاكا هي المساومة على أن تفعل ما لا ترتضي به، ولا تملك إلاه؟

يسرقني من الدروس المدرسية مقابل التحرش بي. يعاقبني بشدة. يردعني عن قول ما لا يقال. يهينني أمام الآخرين وعلى الملأ، ليزرع شكًا مما سأقوله يومًا بحقه إن تجرأت. يحمي شذوذه من العلنية ليستلذ أكثر بالمحرمات، غير أني لم أكن سوى ذاك الطفل المشاغب، والذي بدأ يعلن غضبه على العالم، بل يستجر الخطأ. أخطاء الآخرين ليحل دمهم إن سُفك.

تناول القوس بيدك اليمنى، واحضن الكمان هكذا. مل برأسك جهة الآلة، وأبدأ بتحسس دو. ري. يدي. فخذي. عضوي المنتصب. تشمم رائحة الشهوة. تابع أنفاسي المتلاحقة. جسدي ملاصق لجسدك، ويداي تعصرانك من الخلف. تتأمل عيناي تفاصيل وجهك الفتي. ترسم الشقرة والبياض. غضارة الملامسة ورعشة التأمل. قبلاتي أزرعها على وجهك زهورًا، ولعابي يختلط بريقك الفتي. أشدك إلى جسدي، وأهصرك. أصابعك تفرك عضوي داخل بنطلوني. أتوجع. أتأوه من قلة الخبرة، وأرغب بك أكثر. أدفعك إلى السجود بين ساقي. أصابعك ترفع طرفي بنطلوني، وتتحسس من تحته شعر الساقين. تميل إليه بفمك،

وتعضعض الشعيرات السوداء. أزيح الكيلوت، وأبدأ في إخراج عضوي الهائج. أميل به إلى فمك الأحمر القاني، وبيدي الأخرى أبدأ في ضربك بحزامي الجلدي على ظهرك. رأسك. ذراعيك. وكل ما تقع عليه يداي.

أخبرت أستاذ اللغة العربية بما يحدث. أخبرت أستاذة العلوم، وأنكرت عندما واجهوني به. كنت غاضبًا إلا أني كنت هشًا كرمش عين سقط سهوًا. كنت خائفًا. إلا أني كنت حزينًا، ومرتعًا لشذوذ الآخرين، وكنت رقيقًا وضعيفًا، إلا أني كنت أبحث عن ملجأ من ثقل الأسرار. وحمل صليب المحرمات، وتدنيس التفاصيل في الذاكرة.

ويرن الهاتف. أركض إليه، وتنهرني أمي. عد إلى دروسك. يوم غد امتحانك الأخير. عليك مراجعة دروسك للمرة الأخيرة،و من بعدها الإجازة طويلة. افعل بها ما شئت. هيا. اذهب، وإلا لن أجعلك تذهب إلى السينما مع أستاذ أحمد.

أول ما تعرفت إلى السينما مع عمي أحمد زوج خالتي، والتي لم تعد عذراء. كان الفيلم هيلين طراودة. آلهة تتحكم بأقدار البشر. سيوف تطير الرقاب، وحب يستحق من اجله أن تشن الحروب. ذهبنا إلى السينما كي يزيل عني توتر ما قبل الامتحان، فغدًا هو امتحان الصف السادس لأحصل على الشهادة الابتدائية. دروس اللغة العربية والحساب والعلوم والتاريخ والجغرافيا أنهكت جسدي، وورمت كفاي من كثرة العقاب، وأذناي من الشد والقرص، وأثقلت عقلي المفعم. المحشو بالالم، والناضح بالأسرار.

يرن الهاتف، واركض إليه هربًا من خطبة الحجاج في المسلمين، وكيف سيقطف الرؤوس اليانعة. لا أحد يرد. يرن ثانية، وتنهرني أمي، وتأمرني بالعودة إلى التاريخ، وحروب الإبادة عن بكرة أبيها.

وعودة ثانية إلى الهاتف، وأمي ترد. تتمتم. تنهره عما يفعل، وأنها ترفض، وسوف تخبر خالتي. تسأله ماذا يريد؟ وإلى ماذا يرمي مما يفعل؟ وهي تعلم وهو يعلم، وهي تريد وهو يريد، وأنا أعلم أكثر مما يعلم أحد في سنيني الطرية ماذا يريدان.

صوتها كان ينضح بالرغبة، وجدب الصحراء، وسنين المراهقة التي اغتالها أبي على فراشه. لم تصل إلى الثانية عشرة، إلا وكانت في أحضان رجل ينهرها عن اللعب، ويلكزها عند البكاء الليلي. تحن إلى صدر أمها، وأنفاس أبيها تلفح وجهها، وهو يلفها بذراعيه الآمنتين، ولكن، وفي آخر كل ليلة يأمرها الرجل أن تتعرى، وتفعل وهي ترتدي لباس الحياء، وتستلقي تحته وهي تحضن لعبتها التي خاطتها لها أمها ذات عيد، وقبل أن تدرك ماذا يعني زوج أو زواج كانت الإغماءات المفاجئة، والغثيان. الإقياءات المتتالية، وتشنجات البطن الأليمة. بطنها قد تكور أمامها. أمها فرحة سعيدة، وأباها رأى أنها مازالت صغيرة، وهي، وفي منأى عن الكل سألت أمها ماذا حدث.. فأخبرتها أنها أنثى الآن، وقد كبرت. أنها امرأة ناضجة عليها أن تتحمل مسؤولية طفل، وليس لعبة تلقي بها عندما تشتاق إلى أخرى. أما الزوج الفحل فقد طأطأ أمام أبيها حيث أنكر عليهم ذات يوم أنهم زوجوه طفلة لم تأتها الدورة الشهرية بعد.

قالت: أجل لقد حبلتُ قبل أن تأتيني العادة الشهرية، إلا أن أمي أقرت بغيرذلك، وأقسمت أمام أبي على القرآن بعد أن توضأت ثلاثًا.

في النهار تنظف البيت. تحرق الطعام. تغسل المناديل القماشية المثقلة بالأوساخ. تفرك الملابس الخارجية والداخلية، ولا أمل في نظافتها فتلقي بها في الزبالة، وتنكر أنها موجودة، أو لا تعلم أين هي عندما يسألها، ويغضب. تحن إلى بيت أهلها، ولا تقدر على الذهاب. الباب يغلق عليها من الخارج،

والبيت الكبير. بيت العائلة كان في الشارع الخلفي، ولا تدري كيف تذهب وحدها، وعند عودته من العمل. يغضب من الطعام النيئ، والسلطة الغارقة بالملح. أما البطيخ فهو غير متناسق القطع. مليء بالقشر، والكارثة عندما يطلب قميصًا ما، ويجده، وما زالت العلامات السوداء عند الياقة، والأكمام. فيبدأ الصراخ واللكز والضرب والكلمات الجارحة، والهجر في الفراش ليلًا، وهي، وفي قمة التعب والخضوع. الإحساس بالدونية ونخزات الالم تفرح من شيء واحد، ألا وهو أن تنام وحدها كما في الأيام الأولى حاضنة لعبتها، والتي خاطتها لها أمها. في ذات عيد.

أما دروس حفظ القرآن والحديث. المواظبة على الصلاة في أوقاتها، وتذكيره الدائم لها ألا تنسى عند غيابه في العمل. استجوابه عند عودته بأنها أدت الصلاة أم لا، وتلويحه بالعقاب الشديد، وجهنم وبئس المصير لمن هو ساه عن الصلاة. كل ذلك يجعلها ترتعد وتفعل خوفا منه، ومن النار التي سوف يحرقها بها.

ويرن الهاتف ثانية. ترجوه ألا يعاود الاتصال بها. فهي امرأة متزوجة، وهو رجل متزوج، ومن أختها. لا أحد غريب. هذا حرام وخيانة، ويرتعد صوتها عند سماعها تلك الكلمات، ولا يبالي. فهو يريدها وهي تريده، وكل شعرة في جسدها تناديه، وكل ذرة في جسده تستجديها.

وفي ليل ما، والمفعم دائمًا بالحياة السرية التي ألفتها جيدًا استيقظت، وعلى أصوات تتخفى.. همهمات، وتمتمات تتستر. تأوهات، ونشوات طالت حد بكائي، ودموع نالت من كرامة أبي الغائب. المسافر في ذات عمل.

القاهرة (بدون تاريخ) *

أبي الحبيب..

تحية طيبة وبعد،

إنني بخير وأيضًا ماما وأخوتي كلنا بخير هنا ولا ينقصنا إلا رؤياكم لقد اشتقت لك كثيرًا وأحب أن أقول لك إن مدرستي جيدة وأنا أتابع دروسي جيدًا لأني أريد عندما أكبر أن أصبح طيارًا والأساتذة كلهم مبسوطين مني ويقولون إنني ذكي وشاطر وإنني أبذل كل مجهودي لأكبر وأصبح طيارًا وأسافر لعندك عندما أشتاق إليك. فأنا لا أحب مصر وأحس أن هذا المكان كله شر والشيطان موجود في كل مكان. نسيت أن أقول لك إنني أصلي الصلوات الخمس وأحفظ القرآن. ولقد حفظت الأسبوع الماضي سورة مريم كلها والأستاذ أعطاني عشرة على عشرة وأيضًا أنا أحسن طالب في الإعراب.

بابا متى ستأتي إلى مصر فأنا مشتاق لك ولا أحب ما حولي فهم لا يصلون ويكذبون ويقولون أشياء عيب ويفعلون أشياء حرام وهي من فعل الشيطان. أليس إذا اجتمع رجل وامرأة إلا وكان ثالثهم الشيطان؟ بابا أريدك أن تأخذني معك المرة القادمة عندما تسافر فأنا هنا أحلم أحلام بشعة و...

كلهم لصوص يسرقونني من البيت ويأخذون كل النقود التي تتعب لكي تأتي بها. بابا أنا أحبك كثيرًا ولا احب أحدًا غيرك في هذه الدنيا ووالله لن أضايقك أبدًا عندما تعود وسأجعلك تنام ظهرًا في هدوء كما تحب عندما تعود من العمل.

و السلام عيكم ورحمة الله وبركاته

ملحوظة: أرجوك عد بسرعة فأنا مشتاق لك كثيرًا ولا أريد ان أعيش مع الشر في هذه المدرسة.و لا تنس السيارة التي تعمل بالريموت كنترول التي وعدتني بها إذا نجحت في المدرسة.

و السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ابنك المحب أيمن ماردیني

* وهل للتاريخ أهمية هنا، وفي هكذا حدث.

ويرن الهاتف، وأصرخ فيه مطولًا. ناعتًا إياه بأقذع الألفاظ. محقّرا. مهددًا أني سأخبر خالتي عله يرتدع، ولم...

ويرن الهاتف، وأعلم أنه ليس هو هذه المرة، إذ اسمع صوت خالي سامي المحبب إلى قلبي على الطرف الآخر. فأبدأ في حديث التهديد والوعيد. الاستجداء الكذوب، والذي أصبحت أتقنه جيدًا لأعلم خالي بما يحدث، واحتمي بحماه.

أرجوك ابعد عنا وعن حياتنا. ابعد عن أمي وإلا سأخبرها بذلك، وأنت تعلم من. سأخبر أبي، وإذا علم بما يحدث سوف يقتلك. سأخبر الشرطة. أنا أكرهك. أبعد عن حياتنا أرجوك.

وأغلق الهاتف، وابتسامة تتسلل إلى فمي. أمنية تتسلل إلى مسامي بأن مكالمات الهوس والشبق لن تعود إلى حياتنا. فما أصبو إليه قد تحقق، وبطريقة حاذقة لامعة.

عدة ساعات هادئة، ويرن الهاتف، وأهرع إليه، و...

لا أحد على الطرف الآخر.

وأذكرك يوم علمتني الدرس الأول في النحو والصرف، وكان أول علمي بالاسم والفعل والحرف. عندئذ سألتك هل الله اسم أم فعل؟ غضبت وانتفخت. زفرت طويلًا، وتلجلجت، وقلت: الله لفظ للجلالة معصوم من هذا، وذاك.

علمتني، ولقنتني الدروس الليلية التي لم يأت بها كتاب مدرسي، وآخر. سرقت مني خالتي العذراء بعد. سرقت مني أمي. سرقت مني حي للعلم والموسيقى والفن. سرقت مني أمناً قد لازمني ليلة، ويومًا، أو قسطًا من يوم.

جعلتني قرب التحلل.. حد الاختفاء في تجاعيد البحر، وثبجه. كنت أنتحي في البراءة، ووجودك غير البراءة في شيء. هو المعتم آت في القيعان مبقورة القداسة. ووجودي هو وأدي لك غيروأدي للحياة.

إني، وقد دنست منك، ودنست أنت الحياة.

إني، وقد بليت بك، وشفيت أنت من ذرات سطوع.

إني أعلن عليك، وها حشود الشر تشهد على المتشبث في، وتشاء.

أثرك هو عندي في مغامرة البراكين تحترق لترى كم هي رائعة.

3

أتنصت كعادتي. أبحث في أسرار الآخرين. لا شيء يخفى علي في هذا البيت. التلصص هو الشهقة الدائمة التي يراها الآخرون دائمًا في عيون طفولتي. كبرت، وكبرت الشهقة حتى ابتلعتني والبيت والعائلة. المدرسة والأهل والأقارب والجيران. الحي والمدينة، وأخيرًا... العالم.

أنا والشهقة صنوان.

أنا، وعادة التلصص، والوقوع على الأسرار هو تمردي الصامت في بداياتي. المعلن على الملأ الآن.

قلت: شاهدتهما. كان يقبلها في زاوية المطبخ، وكانت تدفعه عنها. هو يمد يده تحت ملابسها، وهي مانعت. قاومت. تنهدت. تأوهت، ودفعته بعيدًا، وهي تغرز أظافرها في ساعده المفتول.

لكني قلت: فقط أحتضنها.

ومرة. رأيته يذهب وراءها عندما ذهبت لإحضار المشتريات من السوق. ارتدى ملابسه سريعًا، ونزل هو ليشتري السجائر التي أخفاها تحت وسادة الكرسي. سيعود سريعًا، ولن يتأخر. هكذا قال لأهل البيت.

ولكني قلت: دفع باب الحمام عنوة عليها، وهي تستحم. كان يناولها منشفتها الزهرية اللون، أو ما أشبه. أدخل رأسه من فتحة الباب أولًا، ثم انسل إليها، وعرض مساعدته لفرك ظهرها، وغابا ساعتين.

ومرة. رأيته يتسلل من غرفة النوم في أواخر الليل. كان عاري الصدر، وخطواته تشوبها الحذر والترقب، وبحجة تناول كأس ماء من الثلاجة التي كانت فوق رأسها، وهي نائمة على الأرض تحتها. تذرع أنه سقطت منه بضع نقاط من الكأس على صدرها الناهد. المنفلت من أسر قميصها، فاستيقظت فزعة. مبالية بألا يستيقظ أحد ما في البيت، فقد كانت في أشد حالات الحر والاهتياج، وهو أيضًا.

ولكني قلت: يناولها نقودًا في الخفاء، ويشتري لها الأساور الفضية.

ومرة تلو مرة، وقولا على قول، وفي كل المرات الفتنة أشد من القتل، وأنا أصلب على ما أراه أمامي من عري فاضح، وليس مقدسًا.

ألم يصلب المسيح عاريًا!؟

بل دنس هو العري.

كرهت العري، والسقطة في القول. العقاب على مرأى الآخرين، والشماتة في الأعين، والغضب الغضب على فعلهم، وليس في قولي.

جاءوا بها للاستنطاق، واستجرار الحقيقة. الإجابة على الأسئلة البلهاء التي تقال في كل ذي موقف مشابه: من؟ متى؟ كيف، لماذا؟ ولن نرضى بالفاعل أن يكون صهرًا لنا.

اجتمعت العائلة بكل أفرادها، وبعد جز شعرها تمامًا عن كامل رأسها، وقبل المحاكمة كان الصليب يرفع، والمسامير تدق.

أمي. خالتي. مربيتي. أخي أنس. اختي، وعمة امي، والتي دأبنا على مناداتها ستنا خديجة... كلهن قد تجمعن في الركن المنزوي، وأنا أيضًا، وأمامي فاتن المصلوبة على الخطيئة، وخطيئتها بر أمان لنوتي الغزوات الليلية.

هكذا هي العادة.

بطني يكبر، وأعلم ممن. هو ما أريده أبًا لولدي، وكلكم. يا من ترجمونني الآن، وبلا استثناء ضاجعتموني، ونلتم ما تظنون أنكم قد نلتموه، ولكني بالفعل من أخضعكم، ونال منكم، وجعلتكم تركعون لاهثين إثري. تلعقون أصابع قدمي إصبعًا إصبعًا، ولم يكفني هذا. بل فعلت بكم ما لن تنسوه أبد الحياة. أولادكم. أبناءكم وبناتكم شاهدون عليكم، وعلى أفعالكم إن تجرأتم وأنكرتم. فهيا اجلدوني بكل ما تجترحونه من حقد وغل. كره على فعل أتيتم به، والندم يأكلكم. ارجموني، وتناسوا إن استطعتم أنكم لم تأتوا بخطيئة.

فأولادكم هي حجارتي، ومن سجيل، والتي سأرجمكم بها. أولادكم هي حبالي، ومن مسد، والتي ستلتف على جيدكم.

يا ليتها قالت، ولكنها لم تقل، ولكني رأيت.

يا ليتها فعلت، ولم تفعل، وأنا من كان شاهدًا.

فاتن انطوت على ذاتها، واحترفت الصمت. أدمنت على عدم الكلام لفترة طالت، ولم يلتفت أحد.

إني، وها أنا أشهر عليكم الصمت. هذا هو الصمت، ومن الصمت، وإلى الصمت، وحتى الصمت الأخير إلى أن تردوا عني انتهاككم.

عانقتني أمي. مسدت شعري، وبعد قبلات صغيرة وزعتها على أنحاء وجهي سألتني في حنو بالغ: ماذا تعرف؟ ماذا رأيت؟ قل لي؟ أنا أريد أن اعرف. سرك هو سري.

بكيت وبكيت. انتحبت، وشهقت. وبدأت في ضم ذراعي النحيلتين حولها، وهي أيضًا أخذت تلفني، وتزرعني في صدرها.

رائحتها كم افتقدها. كم أحن إلى لحظات البوح تلك. فقط، ولو لحظة بوح واحدة علها تغسل ما علق في ثنايا الروح من شوائب، وعلقات.

يا ليتني قلت، ولم اقل.

يا ليتني فعلت، ولم أفعل.

واختفت فاتن عن جغرافيا البيت. تبخرت، بل تناثرت على الحيطان والأثاث. على مقتنياتنا وذكرياتنا. أحلامنا وهواجسنا. ازدحمت في عقول الصغير منا والكبير رائحة لدخان ما لحريق ما في زمن ما. يحجب خلفه سرًا ما.

فاتن تحولت إلى نور.

والنور حجاب.

والحجاب ستر على سر. غطاء، وَحجب.

وأيضًا هو كلام في الخفاء على كلام لا يراد به العلن.

وجدته في خزانة أمي ملفوفًا بلباس نوم أبيض عرائسي الهيئة. مدسوسًا بين لحاف أبيض ذي زراكش، وغطاء سرير تتوسطه بقعة حمراء قديمة مائلة للبني بفعل القدم. كان على شكل مثلث. جلدي الملمس. بني اللون. محبوك بخيوط مخفية. له ذات الرائحة التي لا تفارق حاجيات خزانة أمي. رائحة شكلت من روائح مختلطة. مختلفة. ذات مصادر متفرقة. بخور هندي موضوع في أكياس حريرية. صابون مبشور. ملفوف بصرر قماشية من بواقي

ملابس قديمة، أو بالية. زجاجات مسك مركز. عطور فرنسية غالية الثمن نصف ممتلئة،أو فارغة مازالت تكتنز رائحتها.

والحجاب الجلدي المثلث الشكل ينطوي على نفس السر. مجهول المصدر لدي. مختلط الرائحة، والهدف من وجوده هناك.

ترى ماذا يحوي؟

كلم كلم همز رهمز ركر ركر رجر جر أقسمت عليك يا (كلمة ممحية) ويا جرجر ويا أعوان الملك الأحمر ان تعقدوا ذكر محمود عن فرج بنت فتحية من 366 عرقًا اولهم العرق الذي بين الذي بين عينيه الواصل إلى فخذيه ان قام انحنى او ان طعن به لترى وان لترى برد وان برد محمد مات وان مات فات وان فات لا يصل الى فرج ليلى بنت فتحية حتى تقطر السماء دما وتنبت الأرض رصاصا وينفث اسرافيل في الصور ويبعث من في القبور توكل يا ريان وكل عفريت وجان وساكن الغمام ان تحضروا وتعقدوا ذكر محمود ابن سميحة عن فرج ليلى بنت فتحية بحق الرؤوس الأربعة ماتزر وقمطم وقسورة اسرعوا من قبل ان تحرق أسماءكم فتكونوا خاسرين.

تم واكتمل *[1]

انتهى..

قالت ستنا خديجة: **ملعون هو من يبوح بالسر. ملعون من كشف المخبأ. من فك المطوي. إياك وإخبار أحد بما ترى، أو تسمع. إياك وإعلانه على أي إنسان في أي وقت، أو آن.**

إلا أني ذهبت، وبكل براءة مصطنعة إلى أبي، وبعد أن جلست في حضنه، وقبلته ثلاثًا على خده الأيمن كما يحب قلت له: هل جدتي اسمها سميحة.

فمال بظهره إلى الخلف قليلًا، وكأنه يتأملني للمرة الأولى، وقال: كيف عرفت أسمها. نحن في البيت لم نأت على ذكرها.

قلت: لقد قرأت اسمها مكتوبًا بعد اسمك في تلك الورقة المطوية المخبأة بين ثياب أمي، وبنبرة غضب مكتوم سألني: أية ورقة؟ أين هي؟ ائتني بها لأعطيك الشوكولا التي أحضرتها لك، وذهبت طمعًا في الإثارة والمغامرة. ذهبت باحثًا عنها لأكمل ما بدأت عميقًا. غميقًا. الحفرة التي حفرت بينهما. لم أدرك محور الخطر في تلك السن. إلا أني أحسست أن الشرر قد قارب، والنيران على الأبواب. آن لها أن تندلع، وتتأجج.

أن يسافر أبي إلى البلد الآخر. أن يكون بعيدًا عن البيت، وأفراد العائلة. أن يتركني وحيدًا أغرف من الذكريات المرة وحدي، كل هذا، وأيضًا الخيالات التي ابتدأ عقلي يزرعها في القلب. المخاوف التي ازدادت، وتحولت إلى أحداث أجهل أيها قد حدث بالفعل، وأيها قد ابتدعه عقلي الصغير. أخي الأكبر يغرق في مستنقع الكتب الصفراء، وسيد قطب وأبو العلى المودودي وابن تيمية. أختي بين رقص الفالس والجيرك وديمس روسوس ليلًا، وفي الصباح المراجع الطبية الثقيلة، والمعطف الأبيض الغالي القماش، وأدوات التشريح الأميركية الصنع التي تفخر بحيازتها دونًا عن باقي زملاءها في الدفعة. أخي أنس. توأمي، وسعيه اللاهث الى آخر موديلات الدراجات النارية، والكاتالوجات والصور والمجلات التي تتحدث عنها، أمي، والتي أصبحت في غياب دائم عن المنزل. ففي الصباح، وبعد كأس الشاي واللقيمات البسيطة، وذلك خوفًا على القوام الممشوق. تبدأ في ارتداء ملابسها استعدادًا للخروج. الباروكة الصفراء ذات الشعر الطبيعي. المكياج الفاخر. العطور الفرنسية، وارتداء أحد أطقمها الصوفية. إنجليزية المنشأ. تتناول الحقيبة جلد الأفعى من أعلى الرف في الخزانة،

والمتناسقة مع الحذاء من ذات الجلد، و... امممم لن أتأخر. أنا ذاهبة إلى الطبيب.

وتختفي أمي عنا إلى باقي اليوم، وعند عودتها تكون منهكة. متعبة. ينتابني عند رؤيتها إحساس ما بالعار تجرجره وراءها، وهي تدخل إلى غرفتها تخلع عنها ملابسها. تذهب إلى الحمام للدش الليلي المعتاد عند رجوعها من الخارج. ملابسها التي تنشرها على السرير لتجفف آثار العرق العالق فيها، ريثما تضعها مع باقي الغسيل الوسخ. سؤالها الدائم، وهي تحت الدش إن كان أحد ما على الهاتف. خروجها اللاهث من الحمام، عندما أقول لها أجل، ولكن المكالمة انقطعت. إنه خالي سامي. أقول لها. إنها عمتك خديجة تسأل عن موعد دورها في الجمعية، أو منال ابنة جارتنا زينب تدعوك إلى شرب القهوة لديها غدًا في الساعة...، أما الانفعال الذي كان ينال منها، وكان واضحًا على ملامح وجهها. عندما أقول أن لا أحد على الطرف الآخر. أما الاحمرار على الرقبة، والممتد إلى مفرق الصدر الناهد، والكتفين، وأعلى الظهر فقد كان بلا شك من آثار الفرك الشديد بالليفة، والصابون، والمياه الساخنة التي كان بخارها ينساب من باب الحمام إلى الممر إلى الصالة، مع روائح الشامبو والصابون النابلسي جيد الصنع.

- هذا يكفي. لن آتي مرة ثانية. هذا حرام، وعيب. أنا لدي أطفال. خلاص. هذا قراري النهائي، وصمت لبرهة. تأتي بعدها ضحكة أنثوية. خليعة، وتجهد في كتمها. تغطيها بأصابع كفها الصغيرة. أجل. كان ممتازًا. قام بالواجب المطلوب منه جيدًا اليوم. ليعاود صوتها كما كان بالغ الحذر والحيطة. إلى أن تعيد سماعة الهاتف، وتنهي المكالمة. تعدل من وضع منشفة الحمام على جسدها العاري. تذهب إلى غرفة النوم، وتأوي إلى فراشها.

ترى أكانت على علم أني أعرف، أسمع، أتكهن، أغضب، أغار، أحقد، وأتمنى موتها وأبي وأخي والعالم والأشياء والتفاصيل والطفولة والحياة، وأنا أيضًا أتمنى موتي؟

بيد مرتجفة ناولت أبي الحجاب البني. جلدي الملمس. أخذه مني، تلمسته أصابعه لتنتابه رجفة، كان يتشممه. يحاول فتحه. يفتحه بحذر. لتبدأ معالمه تتغير، **وبلمح البصر استل من خصره سيفه**. طار حزامه الجلدي الذي انتزعه فجأة من بنطلونه، وبدأ الضرب. سارعت أمي لنجدتي على صراخي، وعندما رآها بدأ ينهال عليها بضرباته على جسدها ووجهها، وبيده الأخرى يصفعها، ويلكمها على جسدها. إلى أن تكورت على الأرض، وعندئذ بدأ دور الرفس والرفس والرفس، وبحذق، وبغريزة طفولية تسللت بعيدًا عن مرمى الخطر والطعن. بعيدًا تسللت، واختبأت عن مشاهدة السر ينفضح. هناك أقبع. أخلق السر، وأعيشه، أعلنه فاضحًا من حولي. أستلذ بعري الآخرين من حولي، محاولاتهم البائسة. اليائسة في ستر عوراتهم. اختبىء تحت سرير أمي. أركن خلف الستارة الحمراء مدارية باب قديم. تحت، وبين دفتي مكتب أبي الخشبي أنزوي أرضًا. اقبع خلف الأبواب أسترق ما يدور من أحاديث. أركن وأشهد المناوأة على ما يدور تحت طاولة الطعام من تلامس للأرجل عند الغداء. المهامسة، والنظرات الغامزة في اجتماعات العائلة عند كل يوم أحد. الاختباء داخل خزانات الملابس وتحت الأسرة. هناك كنت أقف على ما لا أعرفه، ولم أفهمه طوال تفاصيل يومي. كثيرًا ما كان يغافلني النوم، وأحيانًا لا توقظني إلا يد أمي، أو أخي الأكبر، وهي تشدني بحنو من داخل خزانة، أو خلف الستائر، أو من تحت السرير. يرفعني. يضعني على سريري الدافيء، ويغطيني، والحسرة تتسلل إلي لوهلة على ما فاتني، لأغرق في نومة طويلة هانئة أحيانًا، أو كوابيس لا تنتهي أحيانًا كثيرة.

استجداء أبي عند طلب الجنس. تعنيفه لأمي على حدث ما، وأمي تغضب في صمت. ماذا قال لمديره، وكيف كان قويًا في مواجهته له، سخريته من أداء زميله في العمل، وكيف يفوقه ذكاءً. أمي تشتكي الغلاء، وكأن أبي بيده الحل. قلقها حول مستقبل الأولاد، أو ماذا قالت لها جارتها اليوم، وتسأله رأي الدين.

أشياء ليست بذات شأن، أو كانت. ليس بالمهم. فقط الاستمتاع واللذة على ما أسرقه من هنا، وأسترقه من هناك، ولا يدري احد ما أقع عليه.

أمي تحلم بزوج لابنتها، مفصلًا على أحلامها هي، وليس ما تريده أختي، ولن تتزوج أختي إلا ما تريده هي. مستقبل ترسمه لأخي الأكبر، ومشروع تجاري يدر عليه مالًا لا يحتاج أحدًا معه، ولن يحدث. أن أنهي وأخي انس دراستنا في خير وسلام، حيث ميلنا للدراسة ليس كباقي أخوتي، وأشياء أخر كثيرة. أولها الغضب المخبأ فوق الفراش. تحت الوسادة، وليس بآخرها ذلك الشرخ في زجاج باب الحمام، ومن خلاله أشاهد أمي في قميص نومها المبلل. تفرك ظهر أبي المشعر بيد، والأخرى تفرك عضوه المنتصب، وهو مغمض العينين. يكتم آهات نشوة، وأسماء نساء يناديهن. يضاجعهن في خياله. يثيرني القرف، واغتصابه أمي عندما ينزع عنها قميصها، ويبدأ في مضاجعتها.

أمي لا تغمض عينيها مثله. أمي تظل شاخصة. ناظرة إلى شيء ما أمامها. أمي في عينيها حرائق. نيران تشتعل.

رأسها يهتز من وقع الرهز العنيف، وجسدها تعلم كيف يتجاوب مع الوقع. روحها أتقنت الخداع، واصطناع النشوة. الوصول إلى الذروة، والملامسات. نظرات الشبع، وتمتمات العرفان لرجلها. فحلها الوحيد على الأرض الذي يعرف كيف يضاجع النساء، وكلهن على السواء.

أمي تعلمت كيف تشبع غرور ذكورته، وهو ينكر عليها أنها تشبع ذكورته.

أمي: كم من قبر، وغرام، ورفض عار من الصراحة غمر أحراشك؟

بحر هي القبور. احتضارات غرامك صارخة، والرفض معراج لمن انفرط على ركبتيك مبتورًا وفي غير حرص. جريمتك سر في قصر محروس ينهار فيك. يرتطم بجدران رعبك، والحمرة الوردية التي تصرين أنها رقة، بل قشرة هي يطردها ظفري. رقص قطرات حارة فوق حجر من برد، ومطر من غربة. خرز ورع في محراب دعارة مرئي لي.

ويفيض أبي منيًا وصابونًا، وسوائل أخرى من أمي، وهي تسارع في الاغتسال تحت الدش علها تدرك الطعام قبل أن يحترق، والحجة أن الأولاد مستيقظون.

وأشياء أخرى كثيرة تفيض ممن حولي. تتجه إلي بكل قصد، وتحديد. إلى أن يأتي يوم أكاد فيه الانطفاء من ثقل ما أرى، وما أسمع، فألجأ إلى الشتائم، والألفاظ البذيئة التي كثيرًا ما كانت تستبيح المحرمات، وتنتهك السرية المخبأة. استنطق أعضاء الذكورة والأنوثة. مجتمعة مع غشيان المحارم بأفعال جنسية مقززة أحيانًا. تخلو من واقعية، إلا أنها أكثر ما تثير هو التقزز، والاشمئزاز، والمهانة.

رد الانتهاك. وذلك بكلمة واحدة هو ما كان قصدي لتمتمتي البذيئة سرًا.

أتناول سماعة الهاتف، واطلب الساعة الناطقة، وعند بداية سماع الصوت أبدأ في سيل سريع. لاهث. مشتعل بكل مفردات قاموسي السري. لا يتوقف إلا بسماع خطوات أحدهم مني. ناهرًا إياي عن شغل خط الهاتف، أو توقف سماع المرأة الناطقة. حافظة الأسرار لكل توهيمات الصغار المنزلية.

وعند إفضاء الروح من ثقل العذرية. أبدأ في مراقبة الأعين لمن حولي وجلًا. مسترقًا السمع جفولًا من المرأة الساعة أن تعاود الاتصال بأمي، وتفضي لها بما فعلت.

الوجل والسرية والاستمتاع بشهوات الشتائم والسباب حاسة أخرى أضفتها إلى مجمل حواس الانتهاك المختلسة.

4

شعر ينمو على وجهي. تحت الإبطين، وفي صدري. على ساقي، والعانة. عضوي يأخذ شكل الرجولة، والعلامات حانت.

قماشة الساتان دائمًا رفيقتي. زرقاء بلون السماء. حريرية كأوراق الورد. اختلستها من مجموعة أمي للخياطة. سحرني لونها وملمسها على وجهي الفتي. ناعمة كانت تنزلق بسهولة على بشرتي، ولها رائحة البخور الذي تحتفظ به أمي في درجها.

أذكر أنني كنت وحيدًا. رفضت أن أذهب معهم إلى بيت خالتي. بقيت في البيت الواسع. القديم. عالي السقف. عديد الغرف. مشتعل الجسد. محمومًا من الشهوة، وعلى عتبة الميلاد تقف اللذة.

تعريت من ملابسي الصيفية الخفيفة. تعرّيّ أمام المرآة جزء من ذكريات تنحو في القلب. أتحسس الجسد. جسدي، وأمرر قطعة الساتان على مراكزي الحساسة. أبتدئ من خدي نزولًا إلى صدري. حلمتي. أمررها تحت إبطي، وأسفل ظهري. أعود بها إلى بطني. سرتي، وأقفز إلى فخذي مرجئًا عضوي القافز المنتصب. أنتشي أكثر. أمسك بقضيبي، وأدفعه إلى الوراء. مخبئًا إياه بين فخذي متخيلًا شكلي، ودونه. فقط شعر العانة الخفيف، وشق من تحته ظاهر، وكأنه شفرا فتاة. أنزلق أكثر إلى الأسفل. إلى ما هو احتلام مستيقظ. أبدأ الرقص. التلوي بافعوانية. التثني بحرية متدفقة من أعماق شهوة بكر قد حان قطافها. الموسيقى تندفع إلى جسدي موجات عالية. الساتان الأزرق، وملمسه على جسد ناعم ناعم، وينزلق. يدي تطال

جسدي، ولا تستنكره. الشعيرات القليلة المتناثرة فوق فخذاي تثيرني، وتلك التي على قصبتي رجلي. الشقراء الذهبية اللامعة تستفز داخلي مشاعر الرجولة أكثر، ولا يقفز إلى ذهني شيء سوى الامتلاء بالتفاصيل التي أمام عيني على المرآة.

آه ما أجملها المرآة. أدنو منها، وأمد يدي معانقًا إياها. حاضنًا إياي.

:آه أيتها المرآة من هو أجمل مني؟

...:

والجسد جسدي عارٍ أمامي، وأبدأ بالتفحص، والنطق بأسماء أعضائي، وأنا أتلمسها بأطراف أناملي، وباطن كفي، ليمتلئ فراشات عند ملمس كل منها، وعصافير. رياحين. سماءات زرقاء ترتعش. بحور صافية لا موج لها، وتكتمل اللعبة. لعبة سماعي للحروف، وهي تخرج من شفتي، لترتمي على أذني وقعًا حسيًا. جنسيًا لا حادي له.

رمشي عيني شفتاها لسانها رقبتي وبر صدري الناعم حلماتها المتهيجتان حد الصدر من الأسفل وتدويرته ملء اليد خط الشعر الواصل إلى السرة الساكنة في العمق يداي الناعمتان أصابعها الطويلة الملونة بالأحمر قضيبي وشعر العانة المتناثر من فوقه ومن تحته فخذاها رخام أسمر ناعم عمق السر هناك زلق يدعوني أتحسس الأسفل والعلو هو وأسبح في العمق وأغرق في الممكن المكنون السائح على جسدي ويملك روحي ولا أستيقظ إلا على دفقات بيضاء في يدي مختلطة صفراء بأحمر قان والجسد في ارتعاش ورجفان من الأخمص إلى هالة رأسي أخاف أرتعد مريض أنا سوف أموت إن الله يعاقبني سأموت ولن أعيش وبعد مرض وتالم وأمد طويل سأظل في الفراش والكل سوف يعرف ما اقترفت سامحني سامحوني

وتلك الرائحة آه كم هي فائحة تشي بما حدث وتتشكل حدثًا في فضاء البيت صورًا تسرد ما حدث وكأنها آلة سينمائية تعرض ما فات سوف أموت ولن أعيش ولن أصبح طيارًا لن أكون ما أتمنى وما ينتظرني من ملكوت كم خذلتني كم هو مؤلم عقابك يا الله سوف أقول لأمي ما حدث معي علها تنقذني وتريحني من ألم يعتصر قضيبي أعلى فخذي وسائر جسدي هو الإنهاك والخوف والتأنيب والارتعاد والسر الذي أضيف إلى جعبتي أما يكفيني أسرارًا شائنة ومعيبة أسراري تنهك فؤادي بل تنتهك مسامي وفي كل يوم. أما يكفي.

وأسقط في النوم الطويل الطويل العائم على السطح الغير الغميق وارتعادات تنبهني لأسقط ثانية، ولأمد.

قطع.

لتظهر هي في المرآة تنزع عنها ملابسها. يظهر هو، وشعر صدره الأبيض. يمد يده إليها يحاول أن يصل إليها. تلك في قميص نومها الأحمر تتناوب عليهما، والشهوة تأكل نظراتها. أما التي لم تعد عذراء فتنظر إلى صورة إباحية، ويد زوجها على ثديها الأيمن يقبض عليه، ونظراته معلقة على صدر تلك، والصغيرة في الركن البعيد من المرآة تحتار، وهي تختار لون ايشارب لها تضعه على رأسها يتناسب مع لون المعطف الأزرق. الطويل. الصغير بجانبها يحثها على قراءة كتاب سيد قطب، والأصغر منه يرسم قلوبًا، وأسهمًا. أحرفًا من أسماء من لغة ثمتل ذكرى ما. لحدث ما. في وقت ما، وفي آخر المرآة حشود. جمع غفير واقف. تظهر فيها وجوه أعرفها، وأخرى أجهلها. لربما سوف تأتي إلى حياتي، ولربما غادرتني دون أن أنتبه وجودها. غير أنها كائنة في المرآة. أمامي شاخصة. تحدق إلي. تتلصص علي. لا تأبى أن ترحل

عن المرآة. لن أصرخ هذه المرة. لن أعترض. لن أتمرد فقواي خائرة. حائرة أفكاري. منتهكة مشاعري، ومستقبلي في يد من لا أعلم.

ترى علام حالتي ستكون عند استيقاظي من حلم المرآة هذا؟

أليس للمرآة نبض آخر مستقل؟

أليس لها الحق في الحياة بعيدًا عني المرآة؟

أليس لها شمسها تتنعم بها، وقمرها تتغزل به؟

أليس حلمها. طيفها. ضوؤها. قدسية كتابها. لها مني كل التبجيل؟

أليس، و...

وللمرآة رائحة للجنس تفوح، وللذكر منها مثل حظ الأنثيين.

و قطع آخر...

أبدي هذه المرة...

دون رجعة.

دون أوبة.

قطع.

5

لم أكن اعرف أن الأطفال ينتحرون أيضًا، وحرقًا.

لم تكن بعرافة، أو ساحرة شمطاء منفلتة من الحكايات الليلية، بل لم تكن تسعى وراء مال. جاه سلطة، أو كيان فقدته على أعتاب حياة. هي طفلة في العاشرة. طاهرة كانت، ولم تأتها الدورة الشهرية بعد. ناصعة البياض. شقراء الشعر. عينان بنيتان، وذات بنية نحيلة، ليست بهزيلة. كانت ساطعة الأحاسيس. تمتلك قدرة هائلة على التقاط الذبذبات الهائمة حولها. كانت تدري، وتعلم، وتدرك، وكل الأفعال التي تحمل هذا المعنى بما يدور حولها، وعندما يقصدها احدهم ليعرف ما يخبئه القدر له، إما أن تقول ما تعلم، وهو خير، أو لا تقول، وعندئذ يعلم السائل أن ما سيحدث سوف يحدث لا منجاة.

هي منال. هكذا اسمها. ابنة جارتنا زينب بالتبني، وصديقة أمي الحميمة.

وكما اللذات السرية تسرق، وكما الأسرار الليلية تحاك، وكما الاكتشاف لذاتي، والآخرين بدأ يكبر وينمو. أيضًا كانت الحكايا النميمة، وأكل لحم كل من حولي لكل من حولي، وإن ميتًا... وأنا أصرخ فيهم، أما كرهتموه.

قالت أمي: جارتنا. زينب، والتي تزوجت من الشيخ احمد. هكذا أعلنت لأبيها أنها تريد هذا الرجل، وتحبه...

قالت له لن أتزوج إلاه. وإن لم تزوجوني به أعلنت عليكم الحداد، والمقت طوال عمري. هكذا، ولن أتزوج إلاه...

قالت له أريد هذا الرجل. أريده، وأنت تعرفه، وهو تلميذك، وعليك أن تأتي به إلى...

أما زوجها الشيخ احمد، فهو ليس بشيخ، أو من هذا القبيل. هو الذي أكمل تعليمه في بلاد الغرب بعد أن تخرج من المدرسة هنا. في القاهرة، وهناك لم يتوان عن اقتراف كل أنواع اللذات مع نساء الغرب، وافتتانه بكل الحياة الغربية، بكل مباهجها وفجرها.

وللكلمات عندك أمي معنى آخر غير ما اتفق عليه...

وللأحداث لديك صيغة أخرى لم تتشكل في زمن أدركه فقهاء اللغة. غير ماض ومضارع، أو مستقبل.

غير اجترار الحقائق، وتوزيعها بالتساوي على فيافي الأوهام. غير تدنيس الواقع، وصبغه بالأسود. الكحلي الغامق. الرمادي على أحسن الأحوال.

كل هذا ما هو إلا قوام التفاصيل في دقائق حياتك، وحياة من حولك.

غير أن ما قالته قد قالته بالفعل، ولكن لم يحدث.

غير ان ما حدث، قد حدث بالفعل، ولكن لم يقل.

قالت:

تزوجت في زمن لا يستحي إلا من كلمة سأتزوج هذا الرجل. أحبه، وأريده. بل يكاد أن يكون من العار من يتفوه وهكذا كلمات، وهو زوجي. الشيخ أحمد . رغم أنه لم يكن شيخًا . فقد أكمل تعليمه في فرنسا، بعد أن أنهى تعليمه في جامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن)، وحصل على منحه تؤهله إكمال دراسته في ليون، واختصاص الفلسفة الإسلامية.

قال:

هناك تعرفت على الحضارة الغربية. عشت هناك، وفهمت ما يدور حولي، وبقدر ما درست الفلسفة الإسلامية، وغرفت منها. طالت قراءاتي أيضًا الفلسفة الغربية. فقد عملت على اختبار مفرداتها في تفاصيل الحياة من حولي. فمن خلال رؤية وجودية سارترية أحيانًا، وبمنطق ديالكتيكي للتفكير أحيانًا أخرى، وبنكهة موتسارت أحيانًا كثيرة. خبرت كل تلك الفلسفات، وتنقلت بينها دراسة، وحياة. إلا أنني غلفتها كلها بصبغة إسلامية غير مواتية في أحيانًا كثيرة. فلمست تناقضها، وعدم مواءمتها لي عند اشتداد التناقض بينهما. أنهيت دراستي، وعدت أستاذًا في جامعة القاهرة، وكنت من المميزين على مستوى الأبحاث الصوفية، والتحليل الاستشراقي لها. مترجمًا لكثير من الدراسات الأجنبية عن اللغة الفرنسية والإنجليزية، وأحيانًا الالمانية التي تعلمتها خلال الحرب العالمية الثانية، والاحتلال الالماني القصير لفرنسا.

قالت:

وعندما اختار زوجة له. لم تكن سواي. أنا العربية المصرية، والمسلمة. ابنة لأستاذه ومعلمه، وهو أبي شيخ الطريقة الذي يعيش على أعتاب الأزهر، وجامع السيدة والحسين، ولم يتغيب طوال حياته عن حضرة، أو مولد، أو تهجد، واعتكافه طوال شهر رمضان.

قالت الكثير، وقال أكثر، ولكن أكثر ما كان جليًا أنه قد أحبها، وكثيرًا الشيخ أحمد، وأحبته زينب أكثر من حبه لها.

كنت دائمًا أراها تردد آيات القرآن أمامي بصوتها الشجي. الرخيم. الصافي أبدًا. كانت حافظة للقرآن، والقصائد الصوفية للحلاج، وابن الفارض. السهروردي، والجيلاني، والبوصيري، ومحمد إقبال، وجلال الدين الرومي، وذو النون المصري. أما رابعة العدوية، فقد كانت المفضلة لديها.

قالت: وأتممت حفظ أشعارها عن كامل محبة وعشق، وأنا في العاشرة، غير أن القرآن كنت قد أتممت حفظه وأنا في السابعة.

وقالت خالتي العذراء بعد، وهي تحيك قميص نوم لها. عرائسي الشكل. إكمالًا لجهازها، وهي على أعتاب الزواج. قالت، وهي تزم شفتيها. مصدرة ذلك الصوت الذي ينم عن حسرة، وحسد، أو ربما شماتة ما تغتالها الآن: والعلة من زينب. هي العاقر. هي التي بها الداء، وهو سليم الجسد. معافى الروح، ويقال انه تزوج في أوروبا، وله ولد هناك. من امرأة مسيحية. إذن لا عيب فيه. انه صاغ سليم. فحل والله.

وأيضًا أنت. فحش هي كلماتك. شر مستطير. شجر من عطش ينمو. شهيد مارق. مشدود إلى شظايا فخر استشهاد.

ألا تعلمين أن الافتراء والادعاء وقول بما لم يكون هو التدنيس للحياة، من بعده تلوث الذات الكينونة، والروح أيضًا.

كنت قد سمعته - الشيخ أحمد - ذات مرة، وهو يهمس في أذن الشيخ محمد جلال:

و كيف لن تساورها الرغبة في فض بكارة لغز الجنس، أو كيف لن تختبر ما تتكلم عنه النسوة في جلساتهن الصباحية، وأيضًا كيف لي العيش هكذا دون ما حلله الله. بدون ولد، أو وريث؟ سلسال ينقطع عندي أنا الولد الوحيد، وليس لي من عم أو خال أيضًا. كيف لي العيش دون جسد ناعم ألفه ليلًا. أتنعم به، ويغازل رغباتي نهارًا، ويرد الشيخ محمد جلال: ولكنك وافقت يا بني. وافقت، وأعطيت وعدك بعدم مسها أبدًا. فيرد عليه: وافقت، وفي النهاية ليست طوعا موافقتي، بل زهدًا، عله يزيدني ذلك تقربي إلى الله محبة وعبادة، وان أتعمق فيما وهبت حياتي له من أبحاث معرفية، وفك

طلاسم الكتابات الصوفية للأوائل. هكذا كانت أفكاري مبعثرة. هائمة بين موافقة، ورفض. قبول، ونكران. أما الآن فيا مرحى، وأهلًا ومرحبًا بالحياة النعيم.. الهنيئة التي أحيا الآن، وبوجود منال في حياتي. حياتنا.

أحبها في كمالها، وأحبته في الله.

قالت أمي: لقد أعجبته حياته. حياتهما كرهبان. إلى أن أتى ذات يوم، وعند عودته من أحد الحضرات الصوفية، وعندما اقترب من باب بيته سمع بكاء رضيع. وطيء عتبة الباب، وهو لا يصدق ما وصل إليه. أهو حقيقة ما يسمع؟

إلى أن شاهد بين يديها لفة بيضاء. حريرية. تحوي طفلًا رضيعًا رائع الكمال. فائق الجمال. نظرت إلى طفلها، وإليه، وقالت في بحة: حلمت البارحة بطير يقرع بابي، وهو يبكي. طالبًا اللجوء والحماية، وها هي أم ايمن جاءتني حاملة إياه. تخبرني أن زوجها وجد اللفة أمام الجامع. فلم تتذكر أحدًا الاي يستطيع أن يربي ويعطي ويمنح من فقد كل هذا.

قال: ماذا تقولين يا امرأة. ما هذا يا أم ايمن. الأمور ليست هكذا تسير. في دولة. في حكومة. حرام التبني أصلًا. ليس حرامًا أن نربي، ولكن لن نتبنى. لا. هو الموضوع أن...، ولكن... بنت أم صبي؟ كم عمره؟ عمرها؟ كيف شكلها؟ من أهلها؟ واقترب منها مادًا يده يبسمل، ويحوط.

فقلت له: يا شيخ أحمد البنات رزق في الحلم، وفي الحياة فرج.

قال الشيخ احمد: معك حق يا ام ايمن. كل الحق. آه كم هي خفيفة. بنت. إنها جميلة. قمر والله. ما اسمها. نسيت. سوف نسميها جميلة. فقالت الست زينب: ما رأيك قمر... أو... ست الحسن... أو... منال. فرد عليها: منال. هي حقًا منالي في الحياة. اسم جميل، ولكن ماذا سنفعل. كيف نربيها، وتعيش بيننا؟

سوف أستشير، وأرى ماذا أنا فاعل؟ خذي. بسملي أولًا. إنها تبكي. هل هي مريضة؟ فقلت لهما: لا. جائعة ربما. أو تريد أن نبدل لها ثيابها. إنها مبللة...

وسمعت الخالة زينب تتمتم، بعد أن تذكرت ذاك اليوم في أحد جلساتنا سويًا.

... وفي زمن مضى، ورغمًا عن سواد أطبق بسماديره على بحر علاقتنا. غرامنا. جنوننا، وأسماء أخرى لا يحتويها قاموس من الشعراء، وحتى الشعراء الآخرين، وعلى الطرف الآخر من كوكبنا الذي صنعناه.

ها أنا وأنت خلقنا الحياة الحياة، وكل شيء يراه الآخرون في ذات حياة.

والذي نفسي بيدك، ونفسك بيدي خلقنا الحياة.

وكبرت منال في بيت يشع حبًا. الزهد في النفس، والاحتياج إلى الآخر في الله.

قلت لأمي: آتني بملابس نظيفة. جارتنا زينب أشعلت البابور وسخنت المياه. سوف تحممني ومنال...

قالت: لا داع لذلك. فأنت تزيد عليها دائمًا. أنا سوف احممك. إذا كنت تريد.

قلت: أرجوك. فقط هذه المرة...

قالت: لقد استحممت من يومين.

قلت وقالت، بكيت، ووافقت، وذهبت، وقامت جارتنا زينب على استحمامنا أنا ومنال، ولكن كل على حدة.

ومن بعده كانت شوربة العدس الساخنة. المتلفعة بالبخار الحار الذي كان يلفع وجهينا بسخونته هي المكافأة السخية التي كانت تنتظرنا، والهناء، والحبور، والسلام الآمن الدفيء.

منال كانت الذاكرة التي لا تني تقبل كل شيء في سلتها، ولا تهمل منها شيئًا. فهي القدرة الكاملة على التذكر حتى لأدق التفاصيل التي لا تشكل فرقًا في مجرى الأمور. شكل كأس الشاي التي كان يشرب بها الجار عند زيارتهم في صباح عيد الفطر، وقد كانت السماء ملبدة بالغيوم، وغيمة صغيرة على شكل سمكة تتوسط سماءً داكنة، وشعاع من الشمس كالإبرة كان يخترق الزجاج الأمامي لغرفة الجلوس، الذي ينعكس ضوئه على السجادة العجمية عند صورة الحصان المنسوجة بعناية فائقة، إلا أن خيطًا زائدًا انفلت من نسيج السجادة أثار اهتمامها.

جلسنا أنا، ومنال، وأمها، وجارتنا اليونانية استير. كانت تبكي فزعة. خائرة القوى. لقد سرقتها خادمتها الصغيرة. ذات العشرة أعوام. سرقت كل مالها الذي تجاوز مئة وخمسين جنيهًا، وذهبها ومجوهراتها التي أحضرها لها زوجها. كانت غالية الثمن. فقد تجاوز سعرها المئات أيضًا، وبكل هدوء تعودنا عليه من منال، وبكل سابق معرفة، ويقين، وكأن ما تقوله الآن هو ما شاهدته، وسمعته أمامها. كانت تقول لها إن السارق هو صبي الكوى حسين الذي تعرف على الخادمة، ولعب بعقلها ليذهبا بالنقود إلى السيرك.

وكبرت منال، والأيام تلقنها ما هو نقي، وليس بمؤقت،أو زائل.

منال كانت لا تأكل، ولمدة يوم، أو اثنين، أو ثلاثة إلى أسبوع. فقط صائمة على الماء، والزاد لا يمس فمها، وأحيانًا لا تتناول سوى الخس، ولفترة تتجاوز الشهر، وأحيانًا فقط التفاح الأخضر، أو القمح المبرعم الذي كانت تطحنه تحت أضراسها الناعمة. أمها كانت تحاول معها، وبشتى أنواع الطعام وأصناف الطبخ الشهي التي تتقنه، إلا أنها لم تمد يدها، أو تشتهي إحداها.. لم تأكل طوال حياتها لحمًا، أو جبنًا، أو تشرب حليبًا. كانت تتقيأ إذا كان الملح في الطعام، ولو ذرة صغيرة، والسكر والحلويات والشوكولا لم

تسترع انتباها كباقي الأطفال. فقط العسل الأبيض ما كانت تطلبه أحيانًا من أبيها، وذلك فيما ندر.

وكبرت منال في كنف العلم، والأشعار المسترسلة على أرجاء البيت.

جاء الشيخ محمد جلال. صرخت منال راكضة تخبر أمها. أتى وأباها بعد صلاة العشاء. دخل إلى البيت في خفر، وعلى استحياء. كانت نظراته لا ترتفع عن الأرض، وكانت يداه لا تنيان تداعبان بطانة الجيب السفلي لسترته من الداخل. جئنا راكضين، وفي عجل.. قافزين أنا، ومنال إلى **حضن أبي**. أقصد أبيها لنفوز بالهدايا الصغيرة التي لم تفارق جيبه أبدًا.

أن أكون يتيمًا. فاقدًا أبوي. آتيًا من ميتم أو ابن سفاح. كل هذا، وأكثر ربما يكون عذرًا. سببًا أركض من اجله باحثًا. منقبًا. واجدًا دفئًا ما. حنوًا. ضم وألفة أفقدهما.

أنزلنا عن صدره ضاحكًا. منتشيا بنا، ولهونا، وشقاوتنا الطرية، وقال، ولم تغادره ابتسامة الرضا:

- هيا.. سلما على الشيخ محمد جلال... وأنت يا أيمن قل لأمك زينب أن تحضر الشاي الثقيل. الغامق الذي يحبه شيخنا... يا أهلًا وسهلًا بشيخنا. لقد ازددنا بركة اليوم بزيارتك...

وعند عودتي أنا، وأمي زينب، والشاي كانت منال جالسة في وجوم، وترقب. تنظر إلى هناك. إلى تلك النقطة العمياء. خلف الحجب، والغيوم تختفي. ساكنة كانت. خافية عن الكل، وهمست في صوت خفيض إلى الشيخ محمد جلال:

- هو أنت سيكون اسمك أبو حسن. وهي زوجك أم حسن، وكل بناتك سينادينه أيضًا بـ.. حسون أحيانًا، وبـ.. أبو علي أحيانا أخرى في المدرسة...

تهلل وجهه، بعد أن سرت في بدنه لسعة. لم يتمالك إلى أن قام من كرسيه مقابلها، وبدأ في زرع القبلات على وجهها، وعناقها. محتضنًا إياي، ورفعي في الهواء راميًا بي ليتلقفني بين ذراعيه القويتين. لأعود إلى الأرض، وأنا في انتصار لم ينل منال وحدها، بل أنا أيضًا. نحن الاثنين، وعلى السواء. لنعود إلى ألعابنا. إلى لهونا. إلى السماء الخاصة بنا، والتي خلقناها سويًا.

منال. كانت حلم التصوف. ظل الله على الحياة. أدركت قبل الوقت أن هناك رسالة تسري عبرها للحياة، والى البشر. أن الدور المرسوم في دفاتر القدر لها هو في اختلافها عن الآخرين، وأن الأحلام التي تأتيها ليلًا، والأصوات التي تسمعها نهارًا، والعيون التي تلاحقها . أنيسة كانت . ما هي إلا رفاقًا اختاروها لا غيرها لتكون لهم وسيلة تسري عبرها، ولتحقق ما هو كائن.

استراحت منال، وهكذا دور. استراحت، وتلك الأفكار.

وكبرت منال على أعتاب دور العبادة، والدروس الدينية.

قُرئ عليها القرآن. أُسمعت الأشعار. تعلمت الصلاة قبل الكلام، وحفظت الأناشيد الصوفية قبل أسماء الأقارب والأهل، وكتبت أول ما كتبت اسماً من أسماء الله الحسنى، وكانت لم تتقن الأبجدية بعد.

منال. منال أنت الوِرد الخفي. الذِكر المعلن. يأتي بالقلب، بعد صلاة الفجر.

قالت أمي: ولكني أنا من أتيت اليهما بمنال ذات صباح، وعندما جاءني أبو أيمن بها من أمام الجامع. أتذكرين؟ فردت عليها خالتي: ولكن هذا ما يشيع عنها، ولم أملك حق الرد حتى لا يشيعوا عنك ايضًا. فترد أمي: والله هذا هو الافتراء على زينب، والحق يقال. صحيح أنهما قد اخذاها، وقاما على تربيتها، وبشكل سريع وبدون سابق تفكير أو تردد، ولكن لا أحد يستطيع القول إن

زوجته الخوجاية هي من فعلت ذلك، ووضعتها أمام الجامع بعد ان أتت بها من فرنسا. أمعقول أنهما قاما بذلك سويًا، وحاكا المؤامرة على زينب حتى يأتي بابنته، ويربيها في بيته. قالت خالتي: أتنكرين أنها قد ورثت عن أبيها الدروشة التي هي بها. أليست مثله تجديها دائمًا غائبة عن الحياة، والبشر. ألا تشبهه في الملامح. العينين. الجبين العريض، ومشيتها البطيئة. المترنحة. ألا...

وتطابق الروح. تناسخ الجسد. مواءمة التفاصيل، كلها تأتي قبل الحياة. تأتي في خلق الحياة. تأتي في حب الحياة.

وأنتم، وكيف لكم أن تقولوا في وقت ما، ولن تقولوا أبدًا:

وهو الجسد سبيله لينفذ الى الروح...

الجسد الظاهر الذي يجب ان نخفيه...

الروح الباطن التي يجب ان نستظهرها...

وكبرت منال، وأحبت الكل، والجميع كان يجلها كامرأة ناضجة عاقلة لها وزنها، وكلماتها التي لا تنطق عن الهوى، وليس كطفلة أنيسة ودودة شقية، وحلوة شقاوتها فقط.

وكبرت منال، ومرت الأيام أمامها، ولم تمسسها، إلا أنها اختارت منها ما هو حكمة، ومعرفة، والكثير من اليقين.

كبرت منال، ولم تمر السنون عليها.

وحبلت منال، ودون أن يمسسها بشر، وقبل أن تبلغ أيضًا. هكذا، وليس بفعل فاعل. انتفخ البطن وتكور، وأمها في ذهول، وأبوها ليس بمصدق. أخذاها إلى الداية. واحدة بعيدة عن الحارة التي تعيش بها، وفي حضور أبيها

عل ذلك يصبغ شرعية ما، وأمانًا مما ستقوله، ولكن عبثًا. اصفر وجهها وتلبد بالغيوم، وفي غير تردد أقرت الداية أن البنت لا تزال عذراء، ولا يوجد أي أثر لفعل ما، إلا أن ما بداخلها طفلا، وتجاوز عمره الشهر الثالث.

قال: لاحول ولا قوة إلا بالله

قالت: حسبي الله ونعم الوكيل

قال: ألم تقولي لي إنها لم تبلغ بعد

قال: ألم تقولي لي إنها لا تزال عذراء

قال: وكيف حدث ما حدث

قال: أهو من الجن. أحد ما يسكنها

قالت: الكل يعرف أنها مخاويه وتعرف بالسر قبل أن يكون

قالت: ونحن على يقين من هذا. ألم تقل لك إنك ستحصل على رزق قبل نهاية الشهر

قال: وهذا ما حدث. أتذكرين كيف عرفت سارق أساور جارتنا استير

قالت: واليوم المشهود عندما أقرت أن السيد محمد جلال سيرزق بصبي، بعد سبع بنات.

قالت: وعندما أقرت أن الغد هو أول أيام رمضان، وأمرت الكل بالصيام، ولم يفعلوا، وعند العصر سرت إشاعة أن المفتي أخطأ، وعلى الجميع إخراج كفارة

قال: ويوم أن كُسفت الشمس، وفي الليل خُسف القمر ألم تقل لنا في الصباح ما رأته في المنام قبل أن يحدث، وقد كان

قالت: هي منال أنا ربيتها وأعرف ما ربيت. هي ابنتك، و تعرف ما ربيت

قال: هي منال أنا ربيتها وأعرف ما ربيت. هي ابنتك، وتعرفين ما ربيت

قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ولا حول ولا قوة إلا بالله وإليه نستغفر وإليه نؤوب. اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا. اللهم ألهمنا رشدنا، وأعذنا من شر نفوسنا. اللهم ارزقنا نفسًا مطمئنة تؤمن بلقائك، وترضى بقضائك، وتقنع بعطائك. اللهم إنا مقصرون في طلب رضاك فأعنا عليه بحولك وقوتك (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله).

الجميع صَمت، وانتحى في الصمت. إلا منال. تعرف شيئًا ما، ولم تبح به لأحد. من هو؟ ما اسمه؟ كيف شكله هذا الذي فعل ما فعل؟

الكل صمت، ولجأ إلى الصمت. إلا أنا. علامات الاستفهام ازدادت، وتثاقل علي حملها، وتحت سنابكها ازدادت ملامح وجهي قسوة ما لم أعرفها. لم أتبينها وقتئذ. ولم تفارقني أبد الحياة.

في ذلك اليوم جاءت لزيارتنا. أخي انس كان مريضًا. جاءت لتعوده، وتطمئن على حاله. كان مستلقيًا في سريره. سريرنا المشترك أنا، وهو. كان شاحبًا، ومنهكًا، وعندما رآها دس وجهه تحت الغطاء يخفيه. متكلما معها بصوت عميق أنه ما زال تعبًا، ولن يستطع اللعب معنا. حجة أخرى أضافها إلى كل حججه في تجاهلها، والابتعاد عنا، ومحاولاته الدائمة في عدم الظهور. والانكشاف في حضورها. هبطنا إلى باحة البيت منال وأنا، بل ما هو أشبه بمدخل بنايتنا، وعند شجرة النارنج بدأنا حديثنا ولهونا، وتبادل أسرارنا. قالت لي ماذا حدث معها عند الداية، ولم أفهم، ولم أستطع أن أشاركها كل ما أعلم، فهي البراءة التي لا تمس. هي طفولتي التي فقدتها، وباكرًا.

لعبنا، وركضنا. غنينا، ورقصنا، وقلت لها إنني خائف من علاماتي المدرسية أن تكون على غير ما يرام، وأن أبي سوف يعاقبني إن لم أكن من العشرة الأوائل. أكلنا كل ما تصل إليه أيدينا الصغيرة من شجرة النارنج، وخبأنا الكثير منه في جيوبنا، وعندما انتهينا صعدنا إلى منزلي، وهنا، وفي غفلة مني، وكل من كان حاضرًا انزوت في مدخل المطبخ، وتناولت زجاجة الكاز من الخزانة السفلية، والتي تعلم مكانها تمامًا، ولونها. فهي دأبت، وعلى مدار سنوات استعارة القليل لأمها عند نفاد ما لديهم.

سكبت على جسدها الكاز، وأشعلت فستانها الأزرق والأحمر المليء بالفراشات التي بدأت ترفرف طائرة مغادرة فستانها، وروحها، وأحلامها. بل، وحياتها الوجود الفعلي الملموس الكائن الناظر إليه كل الناس والجيران والأهل والمريدين منها أصحاب الحاجة.

غادرت الفراشات حياتنا، ورحلت منال مع الدخان المتصاعد منها إلى السماء.

تصاعد الدخان، ورائحة الحريق ملأت بيتنا ولم تغادره أبدًا.

(لست من يرمق حقًا، والنار تنالها. تنتهكها. لست أنا. هي الفراشات تسأل في فقدان أجنحتها متى تجدْها؟ أم هي الفراشات دون أجنحة. دون أمسِ بها. دون غد تسترجعها. دون اليوم تحيا؟ لست أنا. أجل هي النار. النيران. الحرائق تطال الملامح. تشوي. تذيب، وينقلب الجسد إلى الرماد الهش من عجين لحمٍ، ويحترق. هي تجاعيد النار ترتسم. وشمٌ مقدسٌ. تعميدٌ. مرادُ الالم، والالم شريعة النار. شعيرة أنت دونها في غير طهور. توضؤٌ باللهيب المتناثر. المنثال عليك. هي مراياي تتشظى بين يديي عندما أعجز، وتحزن. هو فرضٌ قبل تخطي عتبة الله. غير الصلاة في بيته

المقدس، أن يستجيب لمناجاتي الساخنة. انصياع الملائكة لي. لها. أن تتبتل، وتتبارك بين يديها.

كم من نارٍ في حريقٍ. كم من لهيبٍ، وتشاعيلَ، وقيظٍ، وظمأ صحراء. كم؟ وأنت وحدك.

هي النار انهض من حلمها، واعترف لمنال أنك في ذاكرة الالم. حضور الانتهاك.

هيا منال. هيا اخلعي عنك ألمك، فالقبر ضيق ضيق لا يتسع لانتهاك العالم الذي تحملين.

أنتهاء اعترافٍ هذا؟ أم هي صلاة النار، ومجوسية في كمون تنزع منه؟

بل استنطاق لك لي لما بالداخل يعتلج، وإني أمجد ما كان إنتهاءً إلى بداية أكثروضوحًا نهاياتها هنا/ ك)

قال الشيخ محمد جلال: هذا حرام. كفر. هي ذاهبة إلى الجحيم لا محالة.

وقالت أمي: مسكينة أمها. ما حالها الآن. الله يصبرها.

وقالت جارتنا استير: هذا جزاء العبث مع الجان والأرواح.

وقال صديق أبيها: هذا قمة العبث، أشبه بالوجود على السطح تارة، وفي العمق تارة.

و قال أخي انس: لقد احترقت منال، وشجرة النارنج، وأيام اللعب واللهو.

و قال أبي: ماتت. لاحول ولا قوة إلا بالله.

وقلت: ماذا يعني موت يا أبتي؟

وقال أبي: ذهبت عند الله؟

وقلت: وماذا يعني الله يا أبتي؟

و هنا هوت صفعة على وجهي...

وعندئذ عرفت أن الله هو الصفعة.

و أحيانًا الله هو الموت.

ولم يصلّ عليها أحد في الجامع، ولم يأت أحد لتقديم التعازي. إلا أن الصوان نصب ثلاثة أيام، وكان فارغًا تمامًا. فقط القائمون على خدمة المعزين، وأبوها، و... أنا.

جميع من كان وشاهد. كل من حولي أنكر ما حدث، ولم يقر بما يعلم، وكأنه لم يكن. منال لم تكن، وقدراتها الخفية وهم. طفولتها ومنشؤها سراب. حملها من الجان، وان كان فهو حلم نسجته هي. أسرارنا التي بحنا بها إليها افتراء. الجميع اتفقوا على إنكار جماعي في وجه حياة منال، بل وموتها أيضًا.

الانتهاك طال السر. طال الموت، ولم يقف عند حد الحياة أيضًا.

6

ذهبت إلى الصلاة يوم الجمعة، وأنا نظيف. استحممت، واستنجيت، وقصصت شعر العانة بعد انتصاب استمتعت به، لكني لم أمارس العادة السرية. فقد احتلمت ليلة أمس. توضأت ثلاثًا، وتلوت الأدعية، والاستغفارات التي أحفظ. ارتديت ملابس العيد الجديدة، وذهبت إلى الجامع. كانت الحشود تملأ باحته، وفي خارجه كان أكثر من داخله. خلعت حذائي، وخالفته. طويته تحت إبطي وصولًا إلى خزانة الأحذية، ووضعته هناك. تناوءت برأسي نحو مكاني المفضل قاصدًا إياه بصعوبة بالغة. متدافعًا برقة بين الأجساد، وأحيانًا بلكزات نالتني في خفية. توجهت إلى المحراب. تناصفته، ونويت صلاة ركعتين تحية المسجد، وبكل خشوع رفعت ذراعيّ تحية، وبدأت، وقبل أن أنهي التشهد ترامى إلي صوت يرتل:

(الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء)

وكأني كنت سابحًا في بحر غارقًا في لجة طائرًا في أجواء أتبينها أمامي جلية واضحة وكأني كنت أسري من مكاني في باحة المسجد على كتفي غيمة شاحبة عارجًا نحو نار لا شرقية ولا غربية في زجاجة توقد ولو لم تمسسها نار لا شرقية ولا غربية نار على نور على نار من نور كمصباح كمشكاة كشجرة أصلها في الماء وفرعها يصل السماء ليست بسدرة منتهى ولا عرش

ملك مهيب هو وهو وليس بشيخ يرتدي بياضًا وقورًا مهيبًا وليس برجل ذي عمامة وجبة خضراء يمسك بمسبحة مئوية تفوح منها رائحة الصندل هو هو وليس من مبنى أو اسم أكني به معنى وكأني رسوت هناك وليس من مرسى والنور يفوح منه نور وكأنه ليس من نور.

وتقولون: إنه وجه من الذاكرة ينمو كالازدحام في شوارع العقل الرخوة.

وتقولون: هو يدمن التحديق في الوجوه، كأنه يحترق بنيران شهوية تستعر وقودها هذياناته غير الهلوسات. الدجنة، والجفاف.

وأقول: وجهه موزع بالتساوي على فيافيَ. عطِشُ هو وسرابُ – ربما – لا أكثر أنا. غير أني عطِشٌ أيضًا، ويشربني ظمؤه، ولا ارتواء... مني؟

و يرمقني...

غير أن قولهم لم يكن، وقولي لم يكن من السراب في شيء أيضًا، وإن كان، فثمة عطش يشقق مسامات الذاكرة، وأنسى كل شيء إلا البحر، ونوره، وثبجه.

كأنه على نور كان يقعي.

ارتعد البدن، وارتجفت الأوصال، والحال أخذت مني ما لها، وبعد أن تمالكت قليلًا ذهبت مترنحًا إلى شيخ كان يرتل. جالسًا في الزاوية القصية..كان وجهه باشًا. مضيئًا. أخذ يرمقني عندما رآني قادمًا نحوه. توقف عن القراءة، ونحى ما بيده جانبًا. مادًا ذراعيه نحوي من بعيد. مستقبلًا إياي. زملني بعباءته. دثرني بيديه، وكأنه رأى ما لم ير الآخرون من حولي. مسد رأسي، وبدأ يتمتم بما لم تصل إليه أذني. تلا ما تلا، وبسمل، وحوقل. وصلتني تمتمة شفتيه، والله نور السماوات والأرض...

جسدي بدأ يهدأ، ويغادره ما ناله.

يا شيخي قلت له: كان يناديني. يستدعيني ليقول شيئًا، لم أستوضحه بالكلمات. قال كل شيء، ولم ينطق. غمرني بضوء، وكشف، ولم يمسسني كالبشر. إلا أني أحسست، وشممت، وسمعت، ونطقت، ولم أفعل في الآن ذاته، وأكاد أقول، كأني أنا هو، وأنا الكمال، والضوء. الكشف، واليقين، والوضوح. بل أنا هو، وهو كأنه... أنا.

يا شيخي. ما هو معنى ما أقول. أنا في حيرة، وقلق على أمري. أأنا مريض. مجنون؟

أمسني جن؟

أم عفريت تلبسني؟

قال الشيخ، وقد لمعت عيناه، وبرقت، وبعد أن زملني ثانية، وابتسامة خفيفة ارتسمت على شفتيه.

: ما ترى بني غير محدود. ماترى هو في الجبال وفي الجدار وفي السماء وفي الأرض وفي الحجر وفي المدار وموجود ومشهود بل كل ذلك هو هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو الله الذي لا اله إلا هو.

و تراءت لي دمعة ترقرقت في عينيه، وهمس في أذني: بني أنت تنطق بلسان حاله، وليس أنت في شيء.

صمت، وبعد فترة طالت قال: ومن الغد ستأتي معي. سنذهب إلى الشيخ الوقور. اسأل أباك؟ ولا مانع أن يرافقك في المرات الأولى إن أحب ذلك.

وزاغ نظري فيما حولي. رائحة الأقدام المبلولة على السجاد العتيق. البخور، والمسك، واللون الأخضر المنفلت من الزجاج المعشق. التمتمات

للشفاه تتلو ما تيسر من آيات الذكر. اللعثمات اللغوية في القراءة. ارتباكات الصغار في طقوس الصلاة. ضحكهم المنفلت. عبثهم البريء. هش هشة الشيوخ في وجوههم. النساء، وهرولتهن أمام الرجال. اختلاس النظرات من الرجال إلى النساء. رجل يسر إلى شيخ، ويسأله المشورة، وآخر يعظ امرأة، ويحثها على الصبر. يعدها بالجنة التي تأتي للصابرين. فتى ملتحٍ يتناول مصحفًا من المكتبة الخشبية. يقبله ثلاثًا، ويذهب به إلى الزاوية، وأنا، وما رأيت، والشيخ، والموعد في الغد، وصوت أبي. سوطه، وصوته يهوي على ظهري، وفي أحسن الأحوال صوت كف يصفع، وصوت الرعد في أذني. صوت أمي تبكي، وتنهره عن إيذائي، وتحميني من ضربات طائشة ينالها بها. لا. لن أقول ما حدث. لن أفشي بالسر. لن أذهب.

وفي تردد وجل أقول للشيخ: أبي مات. أنا يتيم، وخالي هو الذي يربيني مع أمي، وهو لن يمانع إن ذهبت معك... وحدي.

يبش وجهه، ويربت على كتفي، ويسألني أن أصلي ركعتين لوجه الله. أتناول القرآن من يده، وأقرأ قليلًا.

وفي اليوم التالي، وبعد صلاة العصر ذهبنا أنا، وإياه. استقبلنا الشيخ الجليل، ودلنا على غرفة الجلوس، وذهب. كان قد تجاوز السبعين بقليل. ذو شعر ابيض يشكل هالة حول رأسه، ولحية طويلة ملساء من بياض يمسدها بأصابعه طوال الوقت. كان يرتدي جلبابًا أبيض، وبيده مسبحة، وعلى شفتيه تمتمات ذِكر. رائحة البخور تنشر في المكان ألفة محببة. مع إضاءة تتسلل من مصباحي كاز على طرفي الغرفة. جلسنا على الأرض، على بساط صوفي صنع يدوي. تناول شيخي مسندين من الطرف الآخر، وأراح مرفقي عليهما، وأخذ واحدًا آخر له، وأسندت ظهره. دخل الشيخ الجليل، وهو يهمس بصوت وصل إلى مسامعي...

يا "كهيعص" اغفرلي.

اندهشت من كلماته، وأحببتها. إلا أن أوصالي ارتعدت من مهابة الكلمات. جلس قبالتي، وأراح ناظريه علي، وقال موجهًا حديثه إلى شيخي: الصحة لم تعد كما كانت، لكن الحمد لله.

قال شيخي: الله يمد بعمرك شيخنا.

قال: ما نفع طول العمر بدون صحة، وأبتسم

قال شيخي، وقد بادله الابتسام: لم أكمل شيخي، ويعطيك الصحة والعافية.

وهنا تسللت ابتسامة إلى شفتي فقال لي، ولم تفارقني نظراته مكملًا: هنا اليفاع، والصحة أدامها الله عليك بني.

فنظرت إلى شيخي حييًا وقلت متلعثمًا: شكرًا يا شيخ. شكرًا لك.

فضحكا في تودد، وسألني: كم عمرك؟

فقلت: اثنا عشر.

قال: ما شاء الله. ماشاء الله. طول العمر...

توالت الزيارات، وتتالت اللقاءات بيننا، وفي أحيان كثيرة كانت بيني وبينه فقط، دون شيخي. هكذا رغبت، ولم تك إلا رغبته أيضًا.

كان يحفظني القرآن. يتلو علي كل يوم آيات، ويعيدها أمامي مرات ومرات إلى أن أحفظها. أرددها خلفه، وأُخطيء، إلا أنه دائمًا ما كان باشًا في وجهي. ليس مؤنبًا، أو زاجرًا، بل هو الصبور الملقن لمخارج الألفاظ. ضابطًا لدي مخارج الحروف، وحركات العلامات على الكلمات. إلى أن أتى يوم، وفي

منتصف تلاوته قاطعته، ونادرًا ما كنت آتي بمثل ذلك، وقلت، وعيناي توشكان أن تدمعا: لقد رأيت سيدنا محمد في المنام. أتى لي في حلمي مرة، ولم أجرؤعلى القول لأحد. كنت واقفًا على باب خيمته. أعلم أنه بالداخل، نور كان يشع، ويسطع، ولا يغشي العيون آتيًا من الداخل. خفت، وارتعد البدن. رغبت بالدخول عليه، وخفت مما يعرفه، وشاهده، وسمعه. فبدأ حديثه، وكأنه لم يسمع كلماتي، وحدثني، وأفاض متجاهلًا بما بحت له بكل ما يكن ويعلم. سأل الأسئلة التي لم تفارقه طوال حياته، ولم يجد إجابات عنها بعد. سرد ما كان يفكر فيه، ويستحوذ عليه في سنينه الأولى من البحث، وكان قوله لي، وكأنه النائم، أو في المنام كان يتكلم. حدثني عن شيخه ومعلمه، وكيف كان في بداية حياته بلا شيخ، وحكم عليه المريدون، وأصحاب الطريقة، وأدانوه لذلك، وقالوا:

« من لا شيخ له فشيخه الشيطان، ومن كان شيخه الشيطان كان في الكفر حتى يتخذ له شيخا متخلقا بأخلاق الرحمن، وأن الوصول إلى الله لا يمكن أن يتم بغير صحبة العالم العارف، بل هو المظهر الذي عينه الله»

وقال إن الشيخ يجذب المريد جذبة إلى الله تسمى بالجذبة الإلهية، وقال لا تحصيل لهذه الجذبة إلا بصحبة الشيخ، والفيض الذي ينهال من بحره المحيط إلى قلبه المريد.

وكيف يصل فقيرًا في آخر المطاف الأول، ويصبح فقيرًا، وقال ذلك الفقير الذي لا يحتاج إلى الله كما قال إبراهيم عليه السلام « حسبي من سؤالي علمه بحالي».

وقال: وقد لازمت شيخي أبدًا طويلًا. خادمًا عند بابه. جالسًا تحت قدميه. أهب له كل ما أملك من طاقة، وطاعة متناهية الحدود غير لازمة، وواجبة دائمًا من قبلي عليه، وكان هو المانح المعطاء الكريم، والذي لم يبخل علي

بمعرفة، أو قدوة. إلى أن أتى يوم وصرح لي شيخي بما رآه وهو نائم، أو فيما يشبه النوم. إذ كان ذاهبًا في صيد غزال، وعندما رأى واحدًا، وقد صوب سهمه نحوه، وآن أن خرج السهم من جرابه. تحول الغزال إلى نمر هائل الحجم في لحظة، ثم تحول إلى أسد يزأر، ثم تحول إلى ثعبان يفح. ينفث سمه، وقال له الثعبان: ألهذا خلقت؟ أهذه حياتك؟ فقال: والله إني فقط لجائع. أحاول أن أطعم نفسي من كسب يدي، وليس لي في الحياة إلا قوسي ورمحي صنعتهما من أغصان الشجر. فقال له الثعبان: ومالك. أرضك. قصرك الذي تركت لمن كل هذا؟ فقال له شيخي لك كل هذا فخذه، وأعطني بدلًا عنه رداءً صوفيًا أستر به عورتي منك. فماضي الملوث نعيم زائل لست بحاجة إليه. فقط هذا ما أريد. فقال له الثعبان مالي ومالك أنا. اذهب عني لقد طعنتني في مقتل.

فقاطعت شيخي، وسألت أثعبان يتكلم؟ فرد علي قائلًا: وهل لك جناحان تطير بهما. وتابع قائلًا: وعندما توفي، وكان ذلك بين يدي. تألمت شديد الألم على الفراق، وحزنت الحزن الشديد من النقصان الذي تم بعد منه. حفرت قبره بنفسي، ودفنته بيدي بعد أن غسلته ثلاثًا وحدي، رافضًا أن يقوم بذلك غيري، أو معي، وعندما أنزلته هناك، وكأني قد رأيت ملاكًا حارسًا ينتظره. فلما سألت، وكنت في منزلة السؤال العارف قال بعض المشايخ: إن الله يوكل بقبر الولي ملكا يقضي الحوائج تارة، أو يخرج الولي من قبره ليقضيها بنفسه كما عيسى ابن مريم بعد الصلب.

وأفادوني بحكم الإقامة عند قبره كما الأولياء، وعلموني آداب زيارة القبور، وكيف أن أسلم أولًا على الولي المقبور ثم أقف مستقبلا القبر. مستدبرا القبلة، ثم أقرأ الفاتحة مرة واحدة، وسورة الإخلاص إحدى عشرة مرة، وآية الكرسي مرة، وأهب ثوابها إليه، ثم أجلس عنده، وأجرد نفسي من كل

شيء، حتى أصير لوحا، ثم أتصور روحانيته نورا مجردا، وأحفظ ذلك النور في قلبي، حتى يحصل لي فيض من فيوضاته، وأستعين على ذلك بالاستمداد من روحانية شيخي أولا، وجعلها واسطة بيني، وبين الفيض ذاته، ليكون لي المدد، سواء كنت قريبًا منه، أو بعيدًا عنه، والبرهان قوله صلى الله عليه وسلم (وصلوا علي حيثما كنتم) صدق الرسول صلى الله عليه وسلم.

وبقيت على هذه الحال أمدًا طويلًا. امتد أشهرًا فيها من القيظ الشديد، أو من البرد القارس. الشمس الحارقة، أو المطر المنهمر. وحيدًا كنت، وعاريًا عن كل أحوال الدنيا، لكن جسدي المنهك، وروحي العالقة بشيخي كانت مفتقدة، وتعاني الوحدة القاتلة. حولتني إلى كومة متهالكة. مريضة، وتعلقت بجسدي كل أنواع الحمى، والهذيانات المتتالية، ونال مني الألم ما يريد. ألم ألم ألم هو ما كان اسمي، ولا أدري ممّ يأتي، وإلى أين سوف يذهب بي. إلى أن ظهر لي ذات ليلة فيما كنت بين النوم، أو الصحوة الغافلة، ملاكه ليقول:

أنت حلمه. ظله في ظلك. بحره في بحرك. أنت زهد الله.

و تلا علي قول:

- نص حكيم له سر قاطع

- نص حكيم قاطع له سر

- سر قاطع له نص حكيم

- سر حكيم له نص قاطع

- نص له سر حكيم قاطع

- سر قاطع حكيم له نص

- نص قاطع له سر حكيم

إلى أن وقعت مغشيًا علي. لست ادري، أو ربما صحوت من اليقظة، والألم قد غادرني، وكنت السر، والليل كاتمه، وبدأت البحث. في التقصي وحدي علّي أصل إلى فحوى الرسالة التي ألقيت علي، ولم أنتظرها هكذا، وبذات المعنى، والشكل - إلا أني كنت في انتظار شيء ما، لأكن صادقا معك طوال حياتي - وأيقنت أية عظمة نالتني منها عندئذ.

ومرت السنون، ومرت حالات أوقعت ذاتي فيها، والظروف، من ألم جسدي أحيانًا، أو لوعة فقدان أوجعتني، وتماديت بها مرغمًا لعلّي أنال رسالة أخرى تقف بي على الخطوة الثانية لفك السر. الطلسم، الذي خصني به شيخي . والغريب أن مناولته لي كانت بعد وفاته، وليس قبلًا. علما انه كان يخصني بالكثير، على مدار حياته، وملازمتي له الدائمة دونًا عن الآخرين . إلا أن الفشل هو ما نالني، والفزع. اليأس، والقنوط. الخوف من أني لست بذات الأهمية التي حمّلتني ذلك السر، وفك خباياه.

مرت السنون، ولم أبح بهذا إلى أحد. إلى أن رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم أني، وأنت...

أجل هو أنت، وتوسلت بك حسب الباطن أن السر قد آن وقته لفك طلسمه معك، وها أنت وأنا نعلم كلانا ما لا يعلمه أحد، وعلى عتبة باب لم يطأه أحد من قبل. لربما يصل بنا إلى السدرة. إلى المنتهى. إلى الاسم الأعظم.

وهنا، وعند سماعي كلامه، وبالتحديد كلمته الأخيرة التي تخص الاسم الأعظم صعقت من المفاجأة، والدهشة نالتني بالكثير.

وكيف لي يا شيخي؟ سألته. قال لي، وقد تغيرت نبرة صوته: الألم يا بني. الألم. **فالألم مفتاح التجلي. هذا ما تراءى لي ليلة القدر.**

وألمي من غيبة حضورك على مسرح المكان. من الرايات مشرعة في الرحيل. من فنجان قهوة بلون الكلام. ألمي من وجه على وجه وفي وجه أراه في المرايا، وأسأل من؟ ومن رحمة هي دون الخفوت حد الذبالة. بيد أني أراها، وأتالم. على السقوط في غياهب الإشارات، ولا بياض أُسفح عليه. في رماد يتحول ركامًا لينقلب آلامًا أكثرْ. في درب أسير فيه. إلى أين؟ إلى آلام تصل على درب من آلام. في شوك ينخز القلب عند أول شتاء. من سواد أطبق بسماديره على بحر انصهار لي. أول انصهار. آلام آلام آلام. من ألاَ أكونَ إلا به، أو ألاَ أكونَ إلا بها. بآيات الألم لا تستهزئوا. صدُّقت آلامي، وصدُّقت النار الإله الذي تراه في كل شيء وهو حي من حولك. وأنتم كاذبون.

7

وكيف لها العيش تلك الروح موزعة بين جسدين.

الجوزاء قدرٌ، والبرج فعلٌ، وليس بصفة ألحقت بي فقط ليوم ميلادي. قالت لي أمي: تفاجأنا أنا وأبوك عندما أتيتما إلى الحياة أنكما اثنان. أقصد أنتما اثنان. أعني توأماً. كنت أكبر من أخيك بثلاث دقائق. كنتما متشابهين أصل وأصل. لا فرق البتة، والكل يحار بينكما، ويتكهن أيكما أيمن، وأيكما أنس، وكما التوائم كلها تتلهيان بذلك، وتحبان الخلط بينكما، ووقوع الآخرين في هكذا حيرة. إلا أنها استمرت طويلًا اللعبة، والخلط طالني تمامًا أنا الأم التي لا تخفى خافية عليها من أولادها.

لم أفرق بينكما في الشكل، أو المعاملة. في اللباس، أو المأكل. في الحنو، والضم، والألفة التي غمرتكما بها. عشتما سويًا، وقضيتما العمر سويًا. إلى أن شاء القدر أن يفرق بينكما، وبقسوة متناهية. بل انتهك كل المحرمات والمقدسات والقوانين، والطبيعة شاءت، وكان علينا أن نلبي.

قلت له: غدًا سوف أستيقظ قبلك. سأرتدي البنطلون الجينز الجديد، والقميص الأبيض المزركش بالأعلام، والحذاء الرياضي الجديد، وسوف أذهب إلى محطة المترو قبلك. سألتقي منى. حبيبتك. سأقول لها أنا انس، وسأمسك يدها. سأقبلها في فمها، على خديها، و... قلت له ذلك، وأنا لم أعن حرفًا. فقد كانت الابتسامة على شفتي ذات معنى غير ما تفوهت به، إلا انه استشاط غضبًا، وهجم علي، وبكل قوته دفعني في صدري، وبدأ اللكم، والرفس، وأنا أيضًا لم أدخر قوة في الرد عليه، وبكل قوة، ليست بمؤذية.

كل حركة، أو نأمة. كل رفة عين، أو أرق يغزو. كل حلم يراود. حلم يداعب. كل جوع عطش نزوة شهوة فقدان اشتياق. كل ألم، أو حتى فكرة تخطر. فتاة تتحرك لها المشاعر. قبلة تسرق، أو لمسة أصابع. كل شيء يحدث. كل حركة نأتي بها. كل ما ليس بذي ملمس نحس به سويًا، حتى الانتهاك الذي طالنا. أيضًا الانتهاك داهمنا، وسويًا.

استمرت المعركة الدائرة بيننا دقائق إلى أن جاءت أمي غاضبة. حانقة. دفعته بعيدًا عني حيث كان قد أوقعني أرضًا. جالسًا فوق صدري متملكًا مني، وهو يلكمني في صدري، وعلى ذراعي. بدونا لأمي مختنقين. محمري الوجوه، والعرق يتصبب منا، ولباسنا ممزق. صرخت أمي فيه أولًا، ثم توجهت إلي: أنت الأكبر ماذا تفعل؟ ماذا تفعلان؟ أنتما أخوة. بدلًا من الخناق، والقتال عليكما الالتفات إلى الدروس والمذاكرة. الامتحان على الأبواب. قلت صارخًا: هو من بدأ بالضرب واللكم، وأيضًا شتمني، وقال لي... قاطعتني أمي أنتما الاثنان مخطئان. قال أنس لاهثًا: هو من يريد أخذ الملابس الجديدة غدًا، وقال سوف يذ...

اسكتا . صرخت فينا . أنتما الاثنان معاقبان، وعندما يأتي أبوكما سوف أخبره. هيا قوما اغسلا وجهيكما، وبدّلا ملابسكما هذه، وعاودا الدرس، واليوم لن تذهبا معنا إلى خالكما سامي. أنتما معاقبان إلى يوم غد. هيا قوما. اذهبا عني الآن. لا أريد أن أرى أحدًا منكما.

ولم نعاود الدرس، بل جلسنا فقط إلى الطاولة. كل بجانب الآخر كما تعودنا أبدًا، كتفانا متلاصقان، وأمامنا الكتب مفتوحة على درس العلوم، ولكنا لم نقرأ حرفًا. بل فقط نرسم دوائرَ على أطراف الصفحة، وقلوبًا. حرفين من اسمينا، واسم الحبيبة الواحدة المشتركة على امتداد الأسهم. ينظر كل منا إلى الأخر بطرف عينه خلسة. عتب، وتودد، وانتظار لحظة ما لنعاود

الحديث. لم يكن هو دائمًا من يبدأ المصالحة، ولست أنا أيضًا. بل نحن الاثنان نبدأ هكذا، وفي لحظة واحدة.

ليس لها من بدء مصالحتنا. ليس لها من انتهاء مناوشاتنا.

في ذلك اليوم لم نهش لاستقبال أبينا كما هي العادة، وسمعنا أمي تقول له لا تدخل إليهما، وذلك عندما سألها عنا. قالت له: هما معاقبان، ولكن نبرة صوتها المرتجفة كانت موشاة بالرقة والعطف الذي ألفناه.

اصطنعنا النوم مبكرًا، وفي سرير واحد. استلقينا متلاصقين. وجهانا مائلان كل في اتجاه الآخر. تنفسنا واضح. ثابت. كل يلفح وجه أخيه بأنفاسه الهادئة.

وجاء الصباح، وقد نسينا.

وجاء وقت المدرسة، والأوبة إلى ألعابنا. من منا أنس، ومن هو أيمن.

ويمروقت، وننسى، من أيمن، ومن أنس.

كنت أحب الرسم، وحصصه المدرسية، وكان أنس يحب الرسم أيضًا. يحب هو الرياضة، وينتظرالحصص الأسبوعية الموزعة علينا، وكانت تحلو لي تلك الدقائق الخمس والأربعين. ففيها الركض، والطيران، ورمي الكرة في السلة العالية الشاهقة أمامنا في ذلك الوقت من العمر، وفي الوقت المستقطع للمبارة قام أستاذ الرياضة المشرف علينا بتغييري وأنس بعد أن قال: أنس أنت اليوم لست بالكفاءة المطلوبة. ما بك؟ وسررت لذلك إذ انطلت عليه الحيلة. كما دائمًا، وكان بيسان صديقي الرياضي المفعم بالحيوية، والنشاط الدائم قد أخذته الحالة كثيرًا، وبدأ في التميز في هذه المبارة، والتي تحولت إلى منافسة بيننا، والفريق الأخر إلى مسألة حياة، أو موت.

بدأ الحماس يأخذ من الكل. إذ تحولت الأنظار إلى ما يحدث في ملعب المدرسة، وبدأت الصياح على أنس، وبيسان، وباقي أفراد الفريق، وإصدار التعليمات التي لم تفلح في بعض الأحيان، وكانت موفقة في أحيان أخرى كثيرة، وتأتي بثمارها. بدأ العرق يتصبب من الكل، والانفعال قد نال منا الكثير. تحسست تعبًا ما بدأ يتسلل إلى فريقي. صرخت في أعضاء الفريق. هيا يا شباب. بيسان. هيا. بيسان. أيمن. هيا لقد قضينا عليهم. هيا. مررا الكرة جهة اليمين. الآن اليسار. القفزة الطويلة. سدد إلى السلة. لا تتردد. الآن. نعم هكذا... نقطة لنا... ركضت بطول الملعب إلى حيث بيسان وأيمن يهللان، ويرقصان لتمرير الكرة الصعبة، وتسديدها. قلت لبيسان صارخًا: تعبت. فنظر لي أن نعم. قلت له: هيا إنها ليست إلا دقائق. هيا اخلع عنك قميصك، وامسح وجهك وعرقك تحس بالنشاط أكثر. بادلني النظر، وبعد تردد لثوان فعل ما أمرته به. كشف عن صدره الرياضي المشعر، ولأول مرة لي.

بيسان يركض في طول الملعب، وعرضه. من يمينه إلى شماله. يتبادل الكرة مع انس، أو أيمن كما أناديه. يركضان. يتنقلان بخفة طير. يقفزان برشاقة فراشة. يصيحان إلى بعضهما البعض. يتعانقان عند كل هدف. يطيران إلي عند نجاح كل خطوة، أو تمريرة كرة أدل بها عليهما. نرقص سويًا ثلاثتنا في دائرة صغيرة، ونحن متكاتفان. الكل يشاهد، ويتتبع، ويهلل، ويصفق. من يشجع فريقي، ومن كان يشجع الفريق الآخر أيضًا. سرقنا الأنظار كلها. كل أفراد الفريق. من يلعب في المبارة، وأنا أيضًا، وإن لم أكن ألعب. حتى أنس، وإن ظنوا أنه أيمن. أم أنا حقًا من كان يلعب. نسيت، وأحسسنا للمرة الأولى، بيسان وأنا، أننا جد متقاربان. متلامسان، وما بيننا سر ما بدأ في التكون داخل رحمينا.

انتهت اللعبة، ولم ينته الحماس المشتعل في أجسادنا. الدماء المتدفقة إلى وجوهنا. العرق المتصبب، والغارقين فيه. صدر بيسان المشعر المبلل. كفه الصلبة. أصابعه الطويلة الأنيقة وهي تمسح ما علق على مفرق صدره من عرق ينثره في الهواء. يداي تمتدان إليه، وبقميصه أمسح ما يعلق بصدره. قطرات هابطة من حاجب أنس إلى رمشه على شفتي عند معانقتي إياه. زارعًا قبلة انتصار على خده الأيمن. طعم الملح مازال على شفتي... **الكل من حولنا في انتصار، وزهو. أستاذ الموسيقى يختلس النظر إلي من بعيد. من عمق الزمن. من هناك. تحت. في الأعماق الباقية في مكان ما. من سنوات تجاوزت الزمن. من زوج خالتي احمد. من أبي. من شيخي المتصوف السادي. فاتن، ومنال. أمي و... الكل يأتي من أعماقي يهاجمني، وفجأة، وفي أوقات لا أتكهن بها، حزينة كانت أم فرحة، لحظات. إلا أنها في انفعال جلي أكون فيها دائمًا.**

قلت له: عليك بارتداء الخوذة الواقية. لن أتركك دونها. قال أيمن: لا. إنها تعيقني، وعلى منى حبيبتي أن تراني وأنا على الدراجة النارية. كيف ستراني وأنا في الخوذة اللعينة تلك. علي أن أعبر أمام منزلها بالدراجة الجديدة كما وعدتها. غضب، وانطلق دونها بسرعة هائلة، كان الأصدقاء من حولنا على مفرق الشارع تحت بيتنا القديم من حولي. مزهوين بالدراجة النارية الجديدة. يتفحصون أجزاءها. عداد السرعة. الكوابح والنوابض الفضية الموزعة على جانبيها. المقعد الجلدي الأسود، والمرايا البيضاوية الموضوعة على جانبي المقود. انطلق أنس مسرعًا يتحداهم في زمن التسارع عند الانطلاق. صرخت فيه: عد بسرعة وارتدها. الخوذة يا أيمن. عد هنا. إلا أن صوتي ذهب وأدراج زعيق الدراجة الصارخ. أيمن عد هنا. أيمن. الخوذة، وتعالى الضحك من حولي، وتعليقاتهم. أخوك الأكبر. عليك أنت أن تطيعه، وليس هو. أكبر منك بدقيقة أخبر منك بسنة. بل بالخوذة

وأنت الصادق. ما بالكم إذا كان الموضوع فيه منى. حبيبة القلب. هل تغار من أخيك. ترى منى من تحب أكثر. أنس أم أيمن. أنا أقول أيمن، وأنا أقول أنس. تراهن. أراهن. من خمسة جنيهات إلى خمسة جنيهات. ادفع ما عليك أولًا. أين ثمن علبة السجائر التي دفعتها لك الأسبوع الماضي. هل حسبت الوقت عند الانطلاق. وقت ماذا. لا بد أني نسيت كبس الزر...

ومن بعيد يتناهى إلينا صوت ما.

وكانت منى، وأنس، وأنا. ثلاثتنا نمشي سويًا. في صف واحد. متعانقين، والكل يرانا هكذا، وإن لم نكن متعانقين. بل حتى متلامسين. روح واحدة. قلب واحد. أحلام واحدة. هدف واحد. أنا وانس ومنى ثلاثتنا... واحد.

قالت: البارحة ذهبت مع أخي الأكبر وابن عمي وبنت عمي إلى السينما. شاهدنا فيلم جون ترافولتا حمى ليلة السبت. كان رقصه رائعًا. شعره المصفف. لباسه. الجينز الضيق والقميص ذو الياقة الطويلة. مفتوح الصدر. حركة يده وهو يتناول المشط من جيبه الخلفي، وكيف يسرح شعره. كان رائعًا. الموسيقى. الألوان. الدراجات النارية. لباس البنات وموديلات الشعر. حركات البنات. الابتسامات المرسومة على الشفاه. كل شيء كان ساحرًا، وقال ابن عمي أن... وهنا لم أستطع أن أجعلها تكمل، فقاطعتها ابن عمك هذا السخيف التافه الذي يفكر أن كل البنات تحبه وتقع في هواه من أول نظرة. أما يزال يرتدي البنطلون الأسود الشارلستون. أما كان يعرف أن موضته انقرضت من خمس سنوات. أما الكنزة الصوفية الخضراء ذات الياقة العالية فهذه حقًا رائعة. قال أنس: أتقصد الكنزة السوداء. لقد كان جون ترافولتا يرتدي مثلها في فيلم حمى ليلة السبت. فقلت: هو الحمى كلها. صرخت منى: كفى أنتما الاثنان. ما بالكما الغيرة تأكلكما؟ ألأنه أوسم منكما، ويملك دراجة هيونداي و... قاطعها أنس وقال:

ماذا؟ أوسم منا؟ بل هو ملك "جِمال" العالم. وضحكنا عاليًا مفتعلين الضحك سخرية، واستهزاءً. مالت برأسها نحونا بعد أن توقفت عن السير جانبنا، ودون أن تنبس بحرف غادرتنا غاضبة. تخف بخطواتها مبتعدة عنا. تاركة خلفها قلبين ارتعشا من غضب طاولها منا نحن الاثنان.

: كم نحن غبيان

: بل أحمقان

: ولا نعرف كيف نحافظ على قلب من نحب

: ولا نعرف كيف نقول كم نحن نعشق

ركضنا خلفها. أحطناها. أنس من اليمين، وأنا من اليسار. متلاصقة أكتافنا. نتبادل كلمات الاعتذار أنا، وانس. نكمل جملة بدأها أحدنا ليتمها الآخر. ناعتين أنفسنا بالحمقى، والمغفلين، وأنه ليس قصدنا إثارتها، لكنها جميلة جدًا عند الغضب. إذ يتورد خداها، وترتجف أرنبة أنفها، لكنها جميلة جدًا كما هي دائمًا. بل، وأجمل بنات الأرض أجمعين. أميرة على البنات. ملكة على الجميلات. ساحرتان عيناها. هفهاف شعرها. أسود يسيل على كتفيها، وكأنه شلال من انطفاء حول نور وجهها، أما الجسد... وهنا يتورد وجنتاها، وتنهرنا.

منى كانت ترضى سريعًا. كما كانت تغضب سريعًا.

وبكل شقاوة تعود إلى حديثها، وتقول: وكان ابن عمي. فنصرخ ثانية ألم ننته من هذا ابن... عمك؟ فتقول كان يرتدي البنطلون الأسود الشارلستون، والكنزة الصوفية الخضراء ذات الياقة العالية.

ونضحك، نضحك، وتنبت لنا أجنحة من الضحك، ونطير في خفة الضحك، ونسبح في غيمة الضحك، وفي الشعر والنغمات والغناء العذب نضحك، ثلاثتنا نملأ الدنيا بالونات، وشرائط ملونة، وزهورًا منثورة من الضحك.

و من بعيد يتناهى إلينا صوت ما.

اقتربت مني يده، ولمست المنطقة المحرمة من جسدي. كنت مستلقيًا. عاريا في جزئي السفلي. ممدّدا على السرير، والملاءة البيضاء. المائلة إلى الاصفرار من تحتي تبعث في رائحتها القرف، بالإضافة إلى الخجل الذي يعتريني، والأسئلة، والقلق على أخي أنس الذي يراقب ما يحدث لي أمامه. في الخارج كان أبي وأمي، وأخي الأكبر احمد، وفي الداخل كنت أنا وأنس، وذلك الكائن شبه الآدمي يمسك بيده كتلة القطن المبللة بالديتول، ويبدأ في مسح قضيبي المنكمش في يده. أصابعه باردة. خشنة. قاسية، وكأنها ذات دراية بمعرفة ما يفعل. أغرق قضيبي بالسائل المعقم، وما حوله.

قالوا لي: سيتم بتر قضيبك. سوف تبول ودونه كالفتيات. الدم سوف يغرق المكان بعد أن تأتيك الدورة الشهرية كل ثمانٍ وعشرين يومًا. قضيبك لن تلهو به قبل النوم، ولا انتصاب لك بعد اليوم، ولن تجد شيئًا تتباهى به أمام أحد.

امتدت يده إلي حاملة المشارط بكل الأشكال والمقاسات، واختار أحدهم، وبطرف أصابع يده الأخرى سحب قضيبي إلى الأمام، وفي ثانية واحدة انتشر الدم، وانتثر الالم في سائر الجسد. انفجار الدم كان مفاجئًا، والآلام التي حكوا لي عنها لم تكن سرابًا، أو محض كابوس يختفي بعد صحو مفاجيء. كان صدقًا قولهم. الألم. قضيبي في يده ممرغ بالدم. نظرات الفزع على وجه أنس يراقبني، وكأنه يشاهد أحدهم نائمًا أمامه. يحلم بكابوس ما، وينتفض

جسده. يصرخ. يتأوه. إلى أن يفقد الوعي أنس أمامي، ويسقط على الأرض، وأسقط أنا في الغيبوبة. واستيقظ بعد وقت، و...

و من بعيد يتناهى إلينا صوت ما.

والصوت يملأ الدنيا. أخي. أين أنت. ماذا حدث. لا. لن يكون. لن.

و يكون، وليس لنا في يد القدر شيء.

أركض نحو الصوت الآتي. أحدهم يصرخ. أيمن صدمته سيارة. وقع تحت دراجته النارية. أيمن مات. يركضون، وأركض، والمسافة بيني وبين أيمن دهر. بيني وبين الانتهاك قطرة عرق على رمش عيني. أيمن من مات، وأنس من فارق الحياة، وأنا وحيد. لا اعرف من أنا. أيهما الجسد الملتحف دمه، وأيهما الراكض على دمه. السابح في دمه. الواقف على الحدث المفترش الأرض، واللسان ينطق ما هو حاله.

حان وقت النوم حان، وأنت بين ذراعَيّ ريش، وعذوبة نجمة ترى ضوءها في المرآة أول مرة قبل أن تنام. عيناك مثبتتان علي، ولسانك ينطق ما أدري به. أنا، وأنت فقط ندري.

آن نومك، ووشوشاتنا السرية لن تكون. كنت إيابي، وانقلابي إليك ضريح للبداية، وأوبتي ثانية منشأي.

و إلى حين أغيب، وفي عميق سريتك السفلية. استقبلني في واديك الخصيب.

فها الجسد يرقد أخيرًا، وشريعة الانتهاك تدثرني. بين يديك يحوم. يدور جسدي، ولا يذوي في يقينه. أني إلى الجوزاء أميل، وهشاشتي تميط عنها فيض الانتهاك الأليم. انتشلني من اليم الأليم. إني، وقد سقطت، أو

سقطت عني الحياة كتفاحة الجاذبية. لا فرق. تلقفني، واعبر بي إلى دفء مسامك. كيمياء الياسمين والياقوت.

بيدر البياض الشفيف. لأسيح هناك، في تلك المياه، وأميل أكثر إلى نزيف أعضائي عني، وفي غير تريث أوبتي في يسر. إلى علقتي، فنطفتي، وقراري مكين.

من قال إننا اثنان.

من قال إن الحياة لا تستحق أن تعاش، وإن كان الانتهاك أكثر.

من قال إن الجوزاء قدر، وليس حلم نطفة تسبح في بحر الألم.

من قال إن الألم ليس بعاقل، ويعرف كيف يختار ضحاياه من الخطأ.

من قال إن الصواب أجمل من الخطأ.

من قال إن الجنون أن نهز سماءً دون أعمدة. دون أسوار أيضًا، ولا جدران لها.

من...

وليس باستفهام معناي. ليس بتعجب. ليس...

لتعد فاتن من مغارة الذاكرة العمياء.

لتنبثق ذكرى منال، وتنبؤاتها القدسية. المقدسة.

ليأت إليّ الشيخ، وزوج خالتي، وأستاذ الموسيقى، وأنس، و...

لتظهر في سماء غرفتي وأنس أسرار طالما لم ألتفت إليها.

لأعلم أن منال رأت ما هو آت من الأيام على أنس، أو أنا وأنس، ولم تبح لي بشيء.

وأدرك أن فاتنَ اختارتني أنا محورًا لاختيارها الحياة، وان كانت انتهاكًا، فعلى الأقل أنها ليست بموت، وأقوى.

وأتيقن من أن الآخرين. كل الآخرين قد مارسوا الفعل قصد انتهاك.

لأغرق أنا أيضًا في الإنكار، دون النسيان. في التغاضي، وليس الغفران. أغرق في الهيّن دون المستحيل. أقول، وأغضب عندما أقول: أنس توأمي هو نصفي الذي سقط سهوًا في درب انتهاك طال كل التفاصيل، وروحه لم تملك إلا الرفض الصريح المعلن على الملأ. وأمام الجميع أن... لا

وأسقط ثانية في الطري الصعب. الهين المستحيل. أنس لم يكن، لم يكن.

أنس ما هو إلا ظل على الأرض. لجسد معلق بين السماء والروح.

8

تمطر. تمطر بشراسة. السماء تمطر. الأرض تمطر. تمطر في الظل، وتمطر في الظلمة. تمطر على البحر، وتمطر في النبض. تمطر بين الحجر وايقاعه، وتمطر في دفاتري. مطر. مطر في كل الجغرافيا.

هكذا يوم قابلته...

لم يتجاوز عمره واحدا وعشرين انتهاگا. طويل القامة. رياضي البنية. شعر أسود فاحم. طويل. مرسل. يحيط وجهه الأسمر المفعم بالحيوية. عينان خضراوان ترف عليهما رموش كثيفة تخفي انتهاك العينين تارة، وتشي بأسرارهما مرات. يرتدي قميصًا أبيض نصف كم. يظهر عضلات اليدين. مفتوح أزرار الصدر عن شعر أسود كثيف ظاهر للعيان، وسلسال فضي يحيط بعنقه. يتأرجح على صدره. يتدلى منه صليب بلون الدم ملقى عليه المسيح مصلوبًا، وبنطلون جينز أزرق ضيق يظهر عضلات الفخذين والساق، وفي قدمه صندل أسود. تطل أصابعه من مقدمته سمراء. مدقوقة بعناية. قوية. ثابتة على الأرض.

كانت تمطر في ذلك اليوم، ومطر نهاية الشتاء أول الصيف في القاهرة دائمًا يزهر داخلي أحاسيس تتجاوز أصل المطر. نهاية قوس قزح.

كانت تمطر، واسمه نسيم.

مازالت تمطر، وليس بصديقي.

وسوف تمطر، وتمطر، ونسيم هو المصلوب على المطر، وقطراته المنهمرة.

كان اليوم الأول لي في زيارتي لبيت خالي سامي في حي الضاهر، وقبل أن يتلاعب الحشيش برأسينا، أنا وهاني ابن خالي، اتفقنا على ان لا نتورع عن سؤال نسيم لمَ نحن بالذات، ودونًا عن باقي شباب الشلة في العمارة من اختارنا أن ندخل شقة الباشا، والتي لم يسبق لأحد في كل البناية أن فعلها، فقال، وهو يضع كأسين من الكريستال البوهيمي على الطاولة، ويبدأ في صب الويسكي الفاخر: الباشا لا يرفض لي طلبًا، والسيدة جيهان أيضًا. الابتسامة تسللت إلى شفاهنا، والنظرات التي حاولنا اختلاسها إلى بعضنا البعض أنا وهاني جاءت فجة، ولا تشي بأية حنكة. بل كانت تفصح عن شوقنا الى معرفة ما يحدث في تلك الشقة المتلفحة بالسرية، وسحب الغموض. فما كان منه الا أن تابع قوله: وأيضًا إحساسي أنكما لن تسيئا فهمي، أو لنقل... أنكما سوف تتفهمان موقفي.

اعتدلت بجذعي على الكرسي العريض الفخم في ترقب ما سيأتي عليه، وهاني يمد يده إلى الكأس المعدة من نسيم أمامه، بعد أن تشمم رائحة الويسكي، وقال: ويسكي فاخر، ولا مجال إلا الصراحة في قعدتنا هذه، لكن... نحن لم نأت الى هنا من أجل هذا فقط... أين الحشيش؟ فتعالت ضحكاتنا، وأكمل: الحشيش يا جماعة هو من يشفي العليل، ويطير الغربان من الرأس، ويعدل المزاج المضروب.

واستمر الضحك...

كؤوس الويسكي قد بدأت تأخذ ما لها، وتنقلت بين شفاهنا سجائر الحشيش التي دوزنت جلستنا. الموسيقى الخفيفة التي اختارها نسيم كخلفية للحدث، وأحاديثنا التي تشكلت فوق رؤوسنا في سماء البيت سحابة

ود وألفة، ووجوهنا التي بدأت الإشراق، والفرح الذي تسلل إلي كأول يوم، في اول لقاء لنا مع نسيم الذي طالما شاهدناه، ولم نكن أصدقاء بعد.

كانت تمطر، ونسيم أصبح صديقي.

وسوف تمطر وتمطر، ونسيم يحاول ان يزيح ستائر المطر المنهمر على حياته. كشف، ووضوح.

نسيم كان يبيع الجسد. يحترف إقراض الشهوة. يمنح الملذات السرية المتوارية عن الأعين. يبيع، ولم يشتر في حياته شيئًا إلا القسوة المغلفة بالسوليفان. إلا أن يشترك مع البلطجي في استدراج اللوطي، والمكبوت، والمحروم من الجنس. إلا انتهاك المحارم على مرأى من الأب والأم. فقط لإشباع رغبة أبناء الجلابية، والعقال. الرجل السمين الثري. المفعم بالشهوة. الفقير المقموع. المنقوع في رغبات، ولا منفذ لها، ويقبض نسيم الثمن... انتهاكًا.

الفقر انتهاك.

هذا ما وشت به عيناه في قوله:

... بدأت في سن العاشرة، وقد بلغت حديثًا على يد صاحب الحمام في وسط البلد بين أحد أحياء مصر القديمة. كنت أعمل صبيًا في حمام السوق. أنظفه. أمسح القاعات في الداخل والخارج. أغسل المناشف وأطويها. أجمع الليف وبقايا الصابون. ألملم أحجار الحف الملقاة في أرجاء الحمام. ارتب عدة الاستحمام لكل زبون. الليفة مع الصابونة النابلسي الأصلي، وحجر الحف، وماكينة الحلاقة، والمشط العاج لتنظيف الشعر من القمل والصئبان. كل لفة متوضعة على الرف بجانب الباب الأساسي للقاعة البراني لكي تعطى للزبون قبل البدء.

من كل الأجناس زائرو الحمام والأطياف. على كل المستويات والأعمار. الأديان والطوائف. اللغات والجنسيات. مصريون. عرب وأجانب سائحون. شقر. بيض. سمر. سود وصفر. يعطف علي هذا، ويزجرني ذاك. يتحرش بي هذا، ويشتمني أو يلقي في وجهي ببقايا مخلفاته ذاك في أحسن الأحوال. إلا أني تعلمت منهم جميعهم. كلمة إنجليزية من هنا، وإيطالية من هناك. لكنة خليجية من فم هذا، وأغنية لبنانية من حنجرة ذاك. تعرفت على أنواع شتى من البشر والأجساد، وخبرت الأغراض المتنوعة لزيارة حمام السوق لكل الفئات من الرجال، المختلفين شكلًا المجتمعين في مكان واحد لا يختلفون عليه!

وكان خليل باشا الزبون الدائم في الحمام، أو كما نناديه فقط بالباشا. كل خميس، وفي حوالي الساعة الثانية عشرة منتصف الليل يظهر الباشا، وفي يديه لفة كبيرة من الكباب كان قد اشتراها من محل الحاتي أشهر محلات الكباب والكفتة في مصر. لفة تحوي من كل أنواع اللحم، المخ والرأس والكبدة والفشة الكثير، وبالطبع لا ينسى تشكيلة السلطات، وتحديدًا سلطة الخيار، للمعلم سليمان صاحب الحمام مع لفة خاصة له تحوي لحمة الرأس، وزجاجة الكونياك الرخيص المغشوش، وأيضًا سلطة الطحينة لي، وفقط لي أنا دونًا عن الآخرين!

كان يعرف الكل، من يعمل في الحمام، أو من يتردد كثيرًا عليه من الزبائن الدائمين. كان غالبًا ما يفض نزاعًا يحدث بين المعلم سليمان وأحدنا على نقود تستحق، أو يوم إجازة يلجأ إليه أحدنا لظرف عائلي ما، أو حدث استثنائي. كان يعرف الكلمات والمصطلحات التي نستعملها كلغة خاصة بيننا. التعليقات، والألفاظ المستخدمة بين أصحاب العمل الواحد عند

دخول زبون ما مثلًا ونعلم أنه لا يدفع البخشيش، أو أحد الزبائن المتطلبين. الرافضين لكل شيء وغاضبين أبدًا، أو ما يشبه.

الباشا كان خاصًا في كل شيء.

يهوى المزاج، ويحترف المزاج، إلا أنه كان مزاجا خاصًا مثله. يحب الرغد، ويعشق أن يدلل الآخرين، وبخاصة من يشاركه مزاجه، أو يلبي مزاجه.

وقبل ان نغادر مصعد البناية قلت لنسيم، وانا انظر إلى بيسان: هذا صديقي من المدرسة. منذ الابتدائي حتى الآن. هواياتنا واحدة. أصدقاؤنا أنفسهم، ومعًا على الحلوة والمرة. هو أيضًا قبطي مثلك، وأباه قمص في الكنيسة التي أمام محطة المترو، ويسكن بجانبها. انه جارك. فقال بيسان: هل تذهب إلى الكنيسة. لم أرك هناك؟ فقال نسيم: لا. لم أذهب، ولكني سوف أسأل الباشا. ربما الأحد القادم. قال بيسان: ولكن عليك أن تعترف كأول مرة. فقلت أنا: ولكن ليس لأبيك، وإلا كل أسرار الشلة سوف تنفضح، وسوف يذهب بنا أهالينا وراء الشمس، أو أضعف الايمان الفلقة والمرزبة ستكون من نصيبنا.

غادرنا كلنا المصعد الذي انتقل بنا إلى الطابق الأرضي، ووودعنا نسيم على موعد لقاء آخر، وركبنا مع هاني في السيارة متوجهين الى مبارة السلة مع باقي افراد الشلة.

نسيم ما يزال في شد خيوط المطر بعيدًا عنه، وعنا، وكل تفاصيل الحياة الجديدة من حوله.

... وأحيانًا، وعندما كان يتلاعب الويسكي برأس الباشا يبدأ بالرقص على واحدة ونص في باحة الحمام على دقات طبولنا، وصلصلة طاسات الحمام

النحاسية، وأحيانًا أخرى، وبعد السيجارة الخامسة للحشيش الجيد، يلبس مثل الدراويش جلابية، ويلف العمة الخضراء على رأسه، وما هي إلا منشفة قطنية خفيفة، ويعلق في رقبته المسبحة بحباتها المئة التي يزين بها المعلم سليمان الحائط خلفه، هو ذلك الرقص الرتيب الإيقاع، الهادئ، وهو غائب عن الوجود، وعندما كان يستبد به الشوق يغيب مع أحدنا في إحدى غرف الحمام الجواني لأخذ حمام خاص يرفه به عن نفسه. ليظهر بعده مشرقًا. متعبًا. منتشيًا، ويعود إلى عينيه ذاك اللمعان الخفي الذي يجذب رائيه.

الباشا.. هكذا نناديه، ولكنه لم يكن يحب أن أقول له هذا في خلواتنا.

ذات مرة أتى إلى الحمام ظهرًا، وعلى غير العادة مال على المعلم سليمان، ووشوشه في أذنه بكلمات لم تصلنا بالطبع، وبعد إيماءة من رأس المعلم، وإبهامه الذي أشار بهما إلى عينيه دليلًا على كلمة تأمر. فأنت الباشا. جالت عينا المعلم بيننا نحن الواقفين المستندين على الحائط، الجالسين شبه عرايا في انتظار زبون ما في ضجر يملأ الصدور، أو في غفوة لإنكار جوع بدأ ينال البطون. أشار إلي بطرف الشيشة أن تعال، وهمس بكلمات قليلة في أذني: ارتد ثيابك الجديدة، واجمع باقي أغراضك في لفة، واتبع الباشا. لا تجعله يزعل منك. طاقة القدر انفتحت لك أيها العفريت، وضحك ضحكته تلك التي تظهر أسنانه السوداء الأمامية. المنخورة. هكذا، وبكلمات قليلة تفوه بها المعلم. لم أفهم منها شيئًا، إلا أن قلبي قد امتلأ حبورًا ما.

هو نسيم كان في الخامسة عشرة من الانتهاك، أو ما يقرب ذلك.

كانت رجلاي ترتجفان، وصدري يلهج من فرط خشوع أحاطني في بهو الكنيسة المريمية، وذلك عندما ذهبت مع نسيم لرؤية بيسان هناك، كما

تواعدنا. لم تكن المرة الأولى لي لزيارة كنيسة. لم يكن الرجفان والتعرق المفاجيء إلا بدء حالة لم أمر بها من قبل...

رائحة الشمع المحترق. ضوء المشكاوات النحاسية القديمة الموزعة في المكان. نوتات عازف الأرغن في تدريباته قبل صلاة الأحد. مصلون يأتون. يركعون بعد رسم إشارة الصليب على صدورهم أمام صورة العذراء والمسيح على الصليب، ويزيدون الشموع المشتعلة واحدة أخرى. هدوء خطوات الرهبان الساكنين الدير المجاور، ونظراتهم المليئة بالسكون، والخشوع.

كل هذا، وأكثر قد رأيته من قبل. قد امتلأت به. أحببته، ولكني لم أرتو ابدًا منه.

اقتربنا من بيسان الذي جاء الينا باسمًا، وكان خارجًا للتو من غرفة الاعتراف. قال بصوت خفيض: أهلًا بكما. أهلًا. حظك حلو يا نسيم. لقد انتهى أبي الآن، وهو يبدل ملابسه في الغرفة الداخلية. وراء المذبح. سأجعلك تراه. حدثته عنك قبلًا، وذهبا سويًا، دوني انا.

... وذهبت مع الباشا، ورأيت ما لم أره في حياتي من مقعد السيارة الأمامي. كنت جالسًا بجانبه، وهو يقود السيارة. يدي على الشباك المفتوح، والهواء يداعب خصلات شعري الطائرة. شوارع القاهرة القديمة، والحواري. الناس، والمقاهي. محلات الآثار، والسياح. السيارات والأتوبيسات، وزحمة القاهرة. سيارته تسير مسرعة. تتجاوز باقي السيارات من حولنا. انطلقنا من حي خان الخليلي إلى ميدان الأزهر إلى رمسيس، وانعطفنا يمينًا في اتجاه حي الضاهر. لم نتبادل الحديث، ولم ننظر إلى بعضنا البعض. أنا في شرود. في تأمل للوحة الحياة من حولي، وكيف هي مزهوة بالألوان، وفقط لتبدل مكان النظر إليها، وهو... لم ينطق بحرف.

كانت المرة الأولى لي أن أركب سيارة خاصة، وكانت المرة الأولى لي أن أستمع إلى أغان تصدح من الراديو المثبت في السيارة أمامي، كنت أتأمله بدهشة، وكأنها معجزة. كانت المرة الأولى لي أن أذهب إلى شقة احدهم، وليس فقط الباشا. كانت المرة الأولى لي أن أدخل مصعدًا ما في بناية عالية في أحد شوارع القاهرة، وتحديدًا شارع رمسيس الشهير، والذي كان لا يسكن فيه إلا الأغنياء المترفون، بل وكانت المرة الأولى لي أن أدلف إلى شقة تفوح منها رائحة النظافة. شقة الباشا. كانت المرة الأولى، ولن تكون الأخيرة *لأصافح يد جيهان هانم. زوجته*.

هكذا قدمها لي، وقال: وهذا الشاب هو نسيم، وهو أحلى من النسيم، وسوف يساعدك في كل ما تطلبين من شغل البيت و...، وضحكا تلك الضحكة التي أصبحت أفهم معناها جيدًا فيما بعد، والتي كانت تشي ببدء ما هو مطلوب مني.

ودأبت على الاستيقاظ مبكرًا عند الباشا. حوالي الساعة السادسة صباحًا. أنظف البيت النظيف دائمًا. أذهب إلى السوق لشراء الخضار واللحم والفواكه، واستعد للطبخ الذي أتقنته على مرور الأيام من تحت يدي جيهان هانم. أعد الفطور الصباحي على صينيتين منفصلتين. واحدة للباشا، وأقدمها له في غرفته على السرير عند الاستيقاظ حوالي الساعة الثامنة يوميًا، وأخرى للسيدة الأولى في هذا البيت الشاسع، وفي غرفتها الخاصة أيضًا، وعلى سريرها، وذلك عند الساعة الحادية عشرة أو حوالي. فطور أحدهما يختلف عن الآخر حسب المزاج، والتعليمات المسبقة في الليلة السابقة.

أحيانًا تستيقظ جيهان هانم مبكرًا، وذلك للاشراف على تحضيرات حفل ما في مساء ذلك اليوم، أو زيارة هامة لضيف أو اثنين على الغداء. كانت

السيدة دائمًا في أناقة ظاهرة. حتى وهي في لباس النوم، أو عند الاستيقاظ. فالمرآة لا تفارق يدها، وفرشاة الشعر أيضًا. رائحتها كانت رائحة الزهو، والأناقة تملأ الأرجاء من حولها، وإن تكن تستعد لأخذ حمامها اليومي. لباسها الأنيق طوال اليوم في البيت، وكأنها تتأهب للمغادرة الآن. كانت السيدة الأولى تتمتع بذوق عال في الأناقة.

عادة يكون يومي طويلًا. يبدأ في السادسة، ولا ينتهي إلا حوالي الثانية صباحًا. يوم مليء. مزدحم بالأحداث. مشحون بالتعرف على تفاصيل لا تنتهي. أصبحت عادية بمرور الأيام، إلا أنها دائما لا تخلو من المفاجآت الكبيرة في البداية. ليست بذات أهمية بعد مرور الأيام على خدمتي في هذا البيت. منها زيادة عدد الزائرين عما هو متوقع. اختلاط الطلبات الواصلة من محل جروبي مع آخر، أو زيارة أحدهم فجأة ولسبب ما، ويكون من الحاضرين من هو ليس على وفاق معه. إلا أنها جميعًا كانت تحل وبحنكة عالية، ومن قبل جيهان هانم، وحصرًاهي من كانت تقوم وهكذا دور.

الباشا والسيدة جيهان كانا قليلي الكلام، وإن تحدثا فبكلمات قليلة. تخرج هادئة. تصيب الهدف، وأنيقة في ذات الوقت. إلا أن العيون دائمًا كانت تقول الكثير ، وبالأخص عند ساعات المساء، وعندما تحين اللحظة، وعندما تملأ المكان رغبة ما، وعندما ينسحب أحدهما خارج البيت في زيارة مفاجئة، بعد اتصال هاتفي مفتعل، وموعد يحدد لهدف ما غير مقنع، إلا انه مبرر دائمًا بأهميته، ويستمر الغياب عن البيت لساعات وذلك للسيدة الأولى. أربع أو خمس، وأحيانا حتى ساعات الصباح الأولى للباشا.

ويحين الصباح المباح، وأنا اعد الفطور. أذهب إلى السوق لشراء جرائد الصباح، وحاجيات البيت من طعام الغداء، وما شابه.

ويحين الصباح الهادئ في البيت الواسع، ويكون ما حدث البارحة أو لم يكن ليست تلك المسألة. فهو لم يكن.

ويحين الصباح الجديد، ونحن في حبور - جميعنا – والألفة تشع على البيت غمامًا يلفنا. يحوطنا، والرضا على الوجوه واضح. جلي.

هو نسيم كان في الحادية والعشرين من الانتهاك، أو ما يقرب ذلك.

في ذلك اليوم أتى نسيم، وألقى التحية على جميع الواقفين، وبشكل جماعي، فرد على السلام واحد أو اثنان منا. تعلق نظره بي، وكنت واقفًا مع ثلاثة من الفتية، وقد كان يدور حديث ما بيننا. كنت احدهم من رد عليه السلام، وبشكل ينم عن لهفة أو تعاطف، بدايته كانت مع كأس الويسكي والحشيش مع هاني. تابع نسيم سيره، الى ان تناهى إلى سمعه من يناديه، وقد كنت وهاني. اقتربنا منه، وسأله هاني: ما بك مسرعًا. هل تأخرت على الديوان يا خي. إلى أين أنت ذاهب؟، وسألته: ما هذا القميص الحلو، والسلسال أيضًا. من أين اشتريته؟ ومددت يدي ممسكًا بطرف السلسال أرفعه لأرى ما هو معلق فيه. أمسك بالصليب الفضي المنقوش بين أصابعي، وأتلمسه قائلًا. فضة؟ شكله حلو فعلًا. فنظر إلي هاني مستغربًا كلماتي، ونسيم أيضًا. فنحن لم نكن نلقي بالًا الى أي من تلك الاشياء، أو حتى نلمح إليها. قال نسيم: اشتراه لي الباشا. فرددت عليه: هممم. شكله حلو فعلًا. بالمناسبة، نحن ذاهبون إلى السينما يوجد فيلم لعبد الحليم حافظ اسمه أبي فوق... وتداركت هل تحبه. عبد الحليم؟ لم يعلق نسيم، وهاني قد زاد تعجبه مني، وإصراري على أن يكون واحدًا من الشلة. فوضع يده على كتفي، وبدأ يلكزه خفية. فنظر نسيم إلى عينَي هاني دليلًا أنه قد كشف ما يفعل، فأنزلت يده عن كتفي بحركة مفاجئة، وبشكل مرتبك. قال نسيم: نعم احبه. طبعًا. دائمًا أشاهد أفلامه على التلفزيون. مع الباشا. أين يعرض فيلمه الجديد؟

في سينما كايرو بالاس. قلت له. فقال: أجل، ولم لا. سنذهب يوم الخميس، وأكملت: حفلة الساعة السادسة في سينما كايرو بالاس. قال: الساعة الخامسة هنا. تحت البناية. فقلت: تمام، إلى اللقاء، وذهب نسيم، وتابعنا. انا وهاني ما كنا قد بدأناه في قصته مع صديقته سلوى.

ومضى نسيم عنا، وعدنا الى احاديثنا، وتابع نسيم ما أظن انه كان يقوله لنفسه. لي. لنا نحن الشباب الواقفين، والعالم من حوله...

... كنت قد عزمت امري ان أرتدي اليوم بنطلوني الجينز الأزرق الجديد، والقميص الأبيض النصف كم. مفتوح أزرار الصدر لأظهر شعر صدري الكثيف، والسلسال الفضي الذي اشتراه لي الباشا، حتى إن كان شتاءً، والمطر ينهمر في الخارج. لا أبالي. فهذه ملابسي الجديدة، وأنا في عجلة لأرتديها، وأتباهى بها أمامكم. أنتم جيراني من شباب البناية، دائمًا ما كنت أراكم واقفين في داخلها عند المدخل الرئيسي شتاءً، وأمامها موزعون على يمينها وشمالها صيفًا. تتحدثون. تتناغشون. تعلقون النظر على هذه الفتاة، أو تلقون بكلمات طائشة على إحدى الخادمات، وأحيانا تفتعلون خناقة ما، أو مشكلة ما. لتفريغ طاقة مكبوتة، تقبع خلفها أجساد فائرة ليس لها من منفذ.

قال نسيم للقمص: رأيتهم في هذا اليوم يتصايحون. يتدافعون بالأيدي. يتبادلون الاتهامات، ويتوسلون شهادة الآخرين على حدث ما، أو موقف ما لإثبات أقوالهم، وبعضهم، وفي إحدى الزوايا يستمعون لأحدهم الآخر. يقص حكاية ما، أو حدثاً يدعي أنه قد صار معه، ومن حوله ينصتون باهتمام. يتخيلون الكلمات والأسماء أحداثًا، وشخوصًا. يستبدلون البطل الأساسي بهم، ودائمًا محور القصص جنسًا، أو خناقات مع شلل الشوارع الأخرى، أو في النادي.

القصص والحكايات كلها لدي أنا. فأنا هنا كنز الحكايات.

آه من الحكايات. آه من القصص، وما حدث معي قد حدث بالفعل، وليس بادعاء.

أم ترى هو القول فقط للقص، والكلام، وجذب الأنظار، وأن اكون محورًا لحدث ما...

لست أدري؟!

حقًا. لست على يقين من شيء؟!

لربما لم يكن ما حدث، وما قلت. قد حدث، وقيل...

لربما هي محض تخيلات. هلوسات. كوابيس يقظة. بحر تهويمات، واغرق في ثبجه...

ولست ادري؟

قال القمص: وكأن ذلك اليوم هو الأول لك مع أصدقاء تختارهم بمشيئتك.

قلت: وكان ذلك اليوم الأول لي مع حياة أخرى. بداية أخرى، وأشخاص، ووجوه، ومصائر رغبت أن تكون جديدة. ان تعوض علي ما فاتني من متع الشباب، والرفاه.

كنت جالسًا في الصف الأول، وأمامي المذبح الرخامي. على يميني غرفة الأعتراف التي ولج فيها نسيم، وعلى يساري راهبة عجوز تختار شمعة تشعلها، وبعد أن غادرت وباقي المصلين قمت من مكاني. مبدلًا مجلسي لأقترب أكثر، وأسترق. أدنو منهما. أتسمع، وأتكهن، وليكمل عقلي ما غاب عني من كلماته. لم تصلني. كنا انا ونسيم قد تواعدنا على الذهاب ثانية الى الكنيسة بعد أن تعرف الى القمص.

وفي ذات اليوم والوقت المحددين كنت جاهزًا. وجدت باقي الشلة أمام مدخل البناية. ألقيت التحية، ورد بعضهم، والآخرون كانوا في حديث منشغلين. دقائق من الإحراج ونظرات الآخرين. أتى بعدها أيمن، وسلم في عجل بحرارة واضحة، وقال: هاني لن يأتي معنا. الكل جاهز؟ فقال عروة: وزاهر سوف يكون بانتظارنا هناك أمام السينما. هيا لقد تأخرنا. علينا أن نشاهد الفيلم من أوله. فقال محمد: تقصد أفلام الكارتون. فضحك الكل وأضاف عروة: أنا بحب توم وجيري إذا لم يكن كذلك لن أذهب. فتتابع الضحك وقال ايمن: وأنا أحب ميكي ماوس وبطوط. باك باك باك، استمر الضحك ونحن نهم بالسير، والتوجه إلى السينما. فقال محمد: ما رأيكم أن نذهب بالأتوبيس. سلوى وشلتها سوف يكن الآن متجهات إلى هناك. علنا نراهم في الأتوبيس. فرفضنا، ووافقنا، واعترضنا، وقررنا أن نذهب بالأتوبيس في النهاية، وعندما صعدنا بدأ اللغط، والأصوات تعالت في أحاديث ليست بذات معنى. تنم عن حيوية وفرح واندفاع، ونظرات الآخرين إلينا بين متابع متأمل عنفوان الشباب، أو من يسمع، وهو على مضض واستنكار لقلة التربية، ويهمس أحدهم لجاره: وقتما كنا في هذا العمر كنا أكثر أدبًا واحتشامًا ومراعاة للأصول. فيرد عليه جاره السبعيني: حقًا انه جيل قليل الأدب.

إلا هذا من كان واقفًا بيني وبين عروة. هذا الرجل من يمسك بجريدة الأهرام ومجلة آخر ساعة. هذا الرجل الخمسيني. الأشيب. ذو اللحية البيضاء، والمنديل المتدلي من جيب الجاكيت الأمامي أعلى الصدر. هذا الرجل ذو الابتسامة العريضة، والأسنان البيضاء اللامعة، وكأنه في دعاية لمعجون الأسنان كولينوس. هذا الرجل الذي يمسك بعمود الاستناد في منتصف الأتوبيس بحجة أن يحمي نفسه من السقوط. هذا الرجل الذي دأب على النظر إلي، وهو يبلل شفتيه بطرف لسانه بحركة دائرية تشمل طرفي فمه،

وهو يغمز بعينيه تلك التي تحمل معنىً ما أعرفه جيدًا، وتعلمته منذ أيام حمام الخديوي...

نصف وجه. فقط عين واحدة. حاجب واحد. نصف أنف. خد واحد. نصف شفة عليا، ونصف شفة سفلى، والطرف الخفي المظلل لأسفل نصف الوجه والعنق يكاد يبين في مرآة لي. تضوئ أمامها شمعة مدلاة تحترق، وتذوي. في شباك تلوح الستارة فيه. درفتاه مفتوحتان لإغواء البرد والرجفان المكين.

في التواء الوجه يمنة ويسرة. في سقوطه خلفًا مرتجًا. في شلالات الليل المنهمر في شعر أسود. في الانسراب إلى سحيق العمق. في الشهوة يوغل. في الخيانة. في الانهزام. في اللحظة الماضي يتعلق بحواف بئر. في الظمأ ينغل الماء. يظمأ في الارتواء. في الارتباك يتعمد. في العفونة يتذكر متلعثمًا. يحبو. في التهافت عكازه سواد. في الغربان سرٌ. أحجيةٌ يزيدها عمقاً. في الوقت لا زمن. لا عقارب. لا ملائكة ضوء. هي ذرات انطفاء.

عتم كامل.

غير منقوص.

تام.

من قال أن الملائكة ذرات ضوء. سديم نور؟

أم هي التطام خيوط الانطفاء بعد السطوع؟

اقترب مني، وبحركات سريعة مدروسة، وغير ملفتة للنظر إلى أن أحسست بأنفاسه تلفح خدي الأيمن، وزفيره أزاح خصلة شعر انزلقت من خلف أذني. ثوان، وبدأت يده تتلمسني في زحمة الأتوبيس. تزايد لهاثه وتصاعد،

إلى أن أحسست زفيره يكاد يصم الآذان. يطغى على هدير محرك الأتوبيس الروسي القديم. لغط الشلة من حولي. زعيق الكمساري، وتذكيره للركاب بمن لم يقطع تذكرة، وطرقه على طرف خشبة التذاكر بصفارته. صراخ أحد الركاب على السائق بأنه لم يفتح الباب في المحطة السابقة، والسائق ينكر أن أحدًا قد طلب منه الوقوف.

ويده ما تزال تتجول على فخذي الأيمن، وتمتد إلى الخلف مع عقصات صغيرة بشكل دغدغة. نظرت إليه بطرف عيني فوجدته محمر الخدين. نظراته مثبتة على شيء ما. شارد الذهن إلا انه متحفز في الآن ذاته. يرسل ابتسامة تواطؤ ما بطرف فمه عندما تلتقي النظرات، ويتابع. يتابع. تمتد يده إلى مناطقي. تتحسسني. تتجول. تكتشف، ولا تيأس، وتتمنى الأكثر. تحلم بما هو تحت الغطاء.

لوهلة دهمتني الوحدة اللذيذة هذه المرة. أجل. لطالما أنكرتها، وتحاملت على نفسي مرات لأتحمل الوطأة. ثقلها كم أنهكني. إلا هنا، والآن. أحسست كم أنا في الوحدة ملك على عرش، وإن كان من الجماجم تحت قدمي الكثير. الوحدة هي الحياة. هكذا أتينا إليها وحيدين، وسنغادرها أيضًا وحيدين، وسعينا إلى الآخرين. إلى الجماعة دائمًا ما هو إلا وهم نزرعه. سراب من عطش لا يجر وراءه سوى اليباب. أن تفهم الوحدة هذا سر من أسرار الحياة تبوح لك به، وهي أيضًا سر من أسرار البقاء على قيد الحياة. للأشخاص المنتهكين.

وفي الخارج كانت تمطر. لا تزال تمطر، وفي الداخل كانت تمطر، وظلت تمطر. تمطر بشراسة. السماء تمطر. الأرض تمطر. تمطر في الظل وتمطر في الظلمة. تمطر على البحر، وتمطر في النبض. تمطر بين الحجر وايقاعه، وتمطر في دفاتري. مطر مطر في كل الجغرافيا. مطر من الانتهاك طال كل

تفاصيل الداخل. كانت تمطر في ذلك اليوم، ومطر نهاية الشتاء أول الصيف في القاهرة دائمًا ما يرتعد فيه البدن، ويضيف إلى الوحشة قسوة، وأحاسيس عطف على سماء وانتحابها الدائم على فراق ما.

ترى الانتهاك طال المطر، أم كانت تمطر انتهاكًا؟

ازداد اللهاث إلى أن أصبح ما يشبه الانتحاب. بدأت عضلات وجهه في التقلص والانكماش، وازداد توهج خديه، فأدركت أن اللحظة قد حانت، وأنه اقترب من الوصول إلى بر الأمان، عندئذ، وفي لحظة خاطفة، وحركة سريعة ابتعدت عنه، مع دفعي الآخرين الواقفين بجانبي وأمامي في غمار الزحام والاكتظاظ في الأتوبيس، وصرخت به زاعقًا. أنت مجنون؟ ماذا تفعل؟ ولم أنتظر جوابًا فقد انهلت عليه بسيل من الشتائم والسباب، ومن أقذعها، وبصوت عال أخبرت به كل من كان في الأتوبيس أنه يتحرش، وبي أنا الرجل مثله. هل أنت شاذ. لوطي. من الممكن أن أفهم تحرشك بامرأة، ولكن برجل مثلك مثله. هذا هو الحرام. هذا هو العيب وعلى الرجولة من بعدك، وبدأت اللكم والرفس، وممن حولي من الشلة، والركاب، والكمساري. سائق الأتوبيس توقف، واقترب مني والرجل، وأيضًا شارك مع الآخرين بكل أنواع المهانات زاعقًا في أحدهم أننا لا بد أن نذهب إلى الشرطة لنحرر محضرًا ضده، ولا بد أن يسجن لهذا الفعل الشائن. أضاف آخر أن هذه التهمة تؤدي إلى حبس حوالي 3 سنوات مع الشغل غير الفضيحة، وفي الخلف كان آخر يستغفر الله عدة مرات، ويقول عرش السماء يرتجف، ويوشك على السقوط عند إتيانه وهكذا فعل، ولاحول ولا قوة إلا بالله. هنا، وكأن في غمرة الزحام واللغط استيقاظ مفاجئ دهمني، وأرجعني إلى...

وأبدأ في دفع الأجساد من حولي، والبشر تبدأ بالتنحي بعيدًا. إلا أن ذراعي تسبقهم، وترمي بهم يمنة ويسرة. إلى أن أصل إلى الباب الرئيسي، وأقفز. أهرب منهم. مخلفًا ورائي أيمن يناديني، وصوته، ونظراته تنم عن دهشة واستغراب، وذلك عندما تلتفت رأسي في لمحة خاطفة إليه لأرى وجهه يطل على من أحد شبابيك الأتوبيس، وهو يناديني... نسيم. الى أين. ارجع.

انتظر. انتظرني اني آتٍ معك.

هو نسيم كان في الحادي والعشرين من الانتهاك أو الحادية والثلاثين أو الحادية والأربعين أو ما يقرب ذلك.

قال لي بيسان في زمن آت:

رأيته مرة، وبعد ذلك بكثير. كان واقفًا على باب كنيسة مار جرجس في شبرا، وهو مرتدٍ رداء الكهنوت الأسود الطويل، والصليب الفضي والمسيح ملقى عليه مصلوبًا. معلقًا في رقبته. ممسكًا بيده الإنجيل ذي التجليد الأنيق. تفوح منه رائحة البخور، والشمع المحترق، وأمامه جارنا العم جرجس، وهو يتمتم له بكلمات عن زوجه، وكيف هي لا تتبع ما قاله المسيح، ولا تذهب إلى صلاة الأحد، وانه يريده أن يزوره عله يقنعها بالعودة إلى القطيع. كان يربت القس نسيم على كتفه، ويقول له بصوت يكاد يبين أن يوم الخميس القادم في الساعة السابعة سوف يقوم بالزيارة.

وبعد خطوات قليلة هابطًا درج الكنيسة. قابلني وجهًا لوجه مع القس أمجد الذي تعلم وتتلمذ على يديه الكهنوت لمدة طويلة. بدأ أبونا أمجد بالسلام والمعانقة، فيبادله نسيم الأحضان، ويقول له:

وباركك الرب أيضًا أبونا. منذ زمن لم نرك. لقد اشتقت لك كثيرًا. كيف صحتك. كيف أحوالك؟

فيرد عليه أبونا ويقول: وأنا أيضًا. كيف صحتك، والكنيسة، والرعايا هنا؟

إلا أنه لم يكن ينتظر جوابًا إذ تأبط ذراعه، وصعدا السلم الحجري للكنيسة عائدين إليها. متوجهين إلى غرفة القس نسيم.

وما لم يقله بيسان...

وما لم يبح به نسيم...

وما لم يذكر على لسان أبونا أمجد، أو احدهم، واذكره أنا مرغمًا. عارفًا انه قد حدث.

لربما قد حدث...

أو

لم يكن...

وبعد عدة أسئلة وأجوبة بدأت ملامح أبونا امجد بالتغير. بدأ قوله، وهو يعتدل بجسده على الكرسي ملتفتًا إلى نسيم: لقد تجاوزت الأمور مداها، وطفح الكيل. التحرشات طالتنا، والحرب كأنها على الأبواب، أو لنقل أنها قد بدأت بالفعل.

الشيخ خليل الحلبي، وفي صلاة الجمعة الماضية في مسجد الإبراهيمي في أول حي شبرا وعد من قاموا بقتل الصائغ الأرمني الأسبوع الماضي بالجنة، وأقام صلاة الجناز عليهم، وقال أيضًا إن هذا ما فعله الصحابه وقت الرسول محمد مع اليهود في المدينة، وقد عدّهم الرسول من الشهداء الأبرار، وهذا هو الموقف المشرف للمسلمين، ولا بد أن يقتدي به كل مسلم بار لدينه.

وليس هذا فقط، ولكن استمع إلى دعائه في نهاية الخطبة. انه حقًا وكلام يقشعر له الأبدان، ويبدأ وضع شريط الكاسيت في الجهاز. فيبدأ صوت الشيخ المبحوح الأجش ذو الطبقة العالية المستفزة المحفزة التي بدأت بالقول:

اللهم يتم أولادهم. اللهم زن ببناتهم. اللهم رمل نساءهم

اللهم ذل نفوسهم. اللهم أغش محارمهم. اللهم هدد أمنهم

اللهم سود وجوههم يوم تبيض الوجوه

اللهم أفقر المحتاجين منهم. اللهم أحوج المفتقرين منهم

اللهم اجعل حلالهم حرامًا. اللهم اجعل حرامهم زادًا

اللهم اغفر لنا ذنوبنا دون ذنوبهم

اللهم سلط عليهم النقم

اللهم بدد شملهم وفرق جمعهم وأقلل عددهم

اللهم اجعل الدائرة عليهم

اللهم أوصل عذابهم

اللهم سلط عليهم النقم

اللهم سلط عليهم النقم

اللهم سلط عليهم النقم

اللهم أخرجهم عن دائرة الحلم، واسلبهم المال

اللهم غل أيديهم، واشدد على قلوبهم ولا تبلغهم الآمال

اللهم مزقهم كل ممزق مزقته لأعدائك انتصارًا لأنبيائك ورسلك

اللهم بسطوة جبروت قهرك

وبسرعة إغاثة نصرك

وبغيرتك لانتهاك حرماتك

وبحمايتك لمن احتمى بآياتك

أن تجعل كيدهم في نحرهم

ومكرهم عائدًا عليهم

نسألك يا الله يا سميع يا مجيب

يا منتقم يا شديد البطش

يا جبار يا قهار

وكفى بالله نصيرا وحسبنا الله ونعم الوكيل

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

اللهم استجب لنا. اللهم آمين. اللهم آمين.

آمين. أمين

يشيح نسيم بنظره عن أبونا وكلماته، وتتناءى عن سمعه انتهاكات الشيخ الخطيب. غارقًا في أحداث ماضية، وأسماء، ووجوه، وروائح، وليال، وصباحات، وكلها ممتلئة بالمطر، وقطراته.

وعند كلمة ما نطق بها أبونا بصوت لا يكاد يخلو من انفعال. ينفض نسيم بلله عن كتفه، ويصيح بأبينا أن الرد جاهز يا أبت. لا تقلق. ردنا جاهز. نحن لها.

الى أن، وبعد يومين، أو أكثر، تبدأ التفاصيل في التكون لدي. تعود رائحة الأسماء تغزو انفي وأحلامي. تسطو على المخيلة، وتكاد تستنزفها، وفي النهاية، أو لنقل في اعتماد الرأي. يتجه الهدف، وتقف الأسهم جميعها عند اسم واحد ألا وهو... الباشا.

أبدأ في نزع رداء الكنيسة عن جسدي، والبنطلون الجينز والقميص الأبيض يعاودان الظهور من جديد على مسرح الجسد. أتناول الصليب وسلساله الفضي، وأضعه على عنقي. أفتح أزرار القميص وأبحث عن زجاجة العطر التي أهدتني إياها السيدة جيهان ذات انتهاك. أضع عدة أشياء ليست بذات أهمية في حقيبة جلدية، وأعلقها على كتفي. لتظهر وكأن الحقيبة معدة لسفرة قريبة، أو صاحبها آت من رحلة ما. نصف ساعة، وعند مدخل البناية أقف متأملًا الحجارة. الطلاء المهترىء. الباب الرئيسي. رائحة الرطوبة التي أطلت عند أول خطواتي إلى الداخل. خطوات خطوات خطوات، وأصل إلى باب الشقة، ويفتح الباب بحذر في البداية إلى أن ينفرج عن شاب لم يتجاوز عمره واحداً وعشرين انتهاكًا. طويل القامة. رياضي البنية. شعر أسود فاحم. طويل. مرسل. يحيط وجهه الأسمر المفعم بالحيوية. عينان خضراوان ترف عليهما رموش كثيفة تخفي انتهاك العينين تارة، وتشي بأسرارهما مرات. يرتدي قميصًا أبيض. نصف كم. يظهر عضلات اليدين. مفتوح أزرار الصدر عن شعر أسود كثيف ظاهر للعيان، وسلسال فضي يحيط بعنقه. يتأرجح على صدره. تتدلى منه لوحة منقوش عليها كلمة الله مشبوكة مع كلمة محمد حمراء قانية بلون الدم، وبنطلون جينز

أزرق ضيق يظهر عضلات الفخذين، والساقين، وفي قدمه صندل أسود. تطل أصابعه من مقدمته سمراء. مدقوقة بعناية. قوية. ثابتة على الأرض.

يبادره الشاب بسؤاله عما يريد، فيجيب نسيم أنه من أصدقاء الباشا وجيهان هانم، وأنه على سفر، وهذه أول ساعة له في القاهرة، وأنه يعتذر عن القدوم بدون موعد مسبق. فيطمئن الشاب أن نسيم من معارفهم حقيقة. فيدعوه للدخول إلى الصالون، وبعد عدة دقائق يصل إلى سمعه خطوات الباشا، وحفيف لباس جيهان هانم عند باب الصالون، فيهم بالوقوف، وهو يتحسس مسدسه من حقيبة يده. تمتد اليد على قبضة الباب، وتبدأ بالدوران، وعند أول إطلالة للباشا ومن خلفه السيدة الأولى، ترتسم ابتسامة عريضة على وجهيهما، ويهم الباشا بفرد ذراعيه على امتدادهما لمعانقة نسيم، إلا أن نسيم، وبحركة خاطفة يبادر الباشا صارخًا في وجهه: الكلاب ليس لها إلا الموت مثل الكلاب. كلاب، كلاب، كلاب.

ترى هل كذب المطر في تساقطه هذه المرة، فقد خيل إلي أن السماء تنتحب، وها هو المطر يعلن على الملأ أن حزني لن يرتشف أبد الذكرى.

و يؤوب المطر، ويعاود التساقط، وأنا مازلت في التخيل أحرف انتهاك، ولا فراق دونه عاودني.

9

يجمع الكتب المنسية. المقروءة. المهملة على كراسي القطارات، والحافلات العامة، والخاصة. في الحدائق العامة، والملقاة في حاويات القمامة بإنكار، وازدراء. الكتب المستعملة التي دأبت على ملامسة الأصابع لها، وتصفح صفحاتها، وتقليبها. نظرات الأعين ومصافحتها. العشق الجارف المندلق منها للمعرفة، وفك السر المستكين.

يحب، ويدأب على جمع مقتنياته الثمينة، ويكتنزها فيما يسميه **مقبرة الكتب**.

أبو الصباح القارئ النهم. العاشق المتيم. منذ الصغر دأب على القراءة، وعشق الكتاب. احترام متبادل بينه وبين النمل الأسود المتراص، وخلال خمسين عامًا من مزاولة القراءة اكتنز من المعرفة الكثير، وبكل المجالات المتنوعة المختلفة. من أدب ودين، تاريخ، وسياسة، وفنون.

أبو الصباح أيضًا احترف بيع وشراء المكتبات الخاصة. يقتنص الصفقات. يصوب نحو الهدف، وما تحويه من مخطوطات، أو طبعات قديمة نادرة. سلاسل من المجلات الثقافية، والتي لم تعد تطبع. الأعداد الأولى من الجرائد، والنشرات الثقافية. المترجمة، والعربية، وليست المطبوعة، والصادرة في مصر وحسب، بل امتدت إلى بيروت، ودمشق، والجزائر، والمغرب، وباقي الدول العربية، ويحرص على أن تكون لديه دائمًا نسخة واحدة على الأقل من كل ما ينشر، والكل يدفن في المقبرة. **مقبرة الكتب**.

وفي يوم، وهو جالس على طرف المصطبة التي يبيع عليها الكتب عند سور الأزبكية في ميدان العتبة. كان يفرز كتبًا اشتراها من طالب جامعة انتهى توًا من امتحاناته، وبحاجة إلى تذكرة قطار عائدًا بها إلى محافظته. في ذلك اليوم المشمس من أيام القاهرة الصيفية تقدمنا منه بحذر وترقب أنا وجدي.

قلت لها: أمي. أرجوك قولي لأبي. انها العطلة الانتصافية، وها نحن عند عمتي خديجة. دائمًا تقولي لي بيتها بعيد، وهي مشغولة. الآن نحن هنا. فقط يومان، أو ثلاثة. فقالت عمتي، وهي تتأمل وجهي: دعيه عندي، والله مشتاقة له، وقولي لأبيه أنني من طلب ذلك، ولن يعترض. قالت: أيمن كل مرة يفعل بي ذلك، وأبوه يغضب من عدم رجوعه الى البيت بعد أية زيارة لنا... قالت: قولي له يغضب مني أنا، وليس هو، ويكلمني، ويقول لي ذلك إن استطاع. أيمن ابني مثلما هو ابنه. فقلت، وعيناي قد بدأتا تدمعان، مستجديًا: الله يخليك. فقط يومان، وعمتي مريضة، وتريد أحدًا أن يذكرها بالدواء. فتقول عمتي مبتسمة: أنا مريضة، ودواء أيضًا. من يسمعك يعتقد ان عمري مئة سنة، وعلى حافة قبري. يلعن شيطانك يا أيمن. أنت جني، والله جني صغير. هيا خذيه معك لا أريده معي. انه يذكرني بعمري هذا الشقي، وتابعت عمتي: أيضًا أريده ان يساعدني في بيع المكتبة، وترتيب الكتب في الكراتين. هذا عمل شاق علي أنا وأخي. دعيه عندي يومين...

هي عمتي، ولم تكن سوى عمة أمي، ولكننا دأبنا على مناداتها هكذا، وهو أخوها، ولم يكن جدي الا أننا أيضًا أحببنا أن يكون جدي.

كان يرتدي بدله قطنية. صيفية. بيضاء اللون مائلة إلى الرمادي. ينفض بيده صفوة سيجارة علقت على ذراعه وهو يتأمل أبو الصباح من بعيد.

قال، وعيناه كانتا تلاحقان فتاة تتصفح كتابًا لسيجموند فرويد، وكان بعنوان ما فوق مبدأ اللذة. فقلب شفتيه، وهو يتابع كلامه إلى أبو الصباح.

... وقد دلني عليك حفيدي أيمن. نصحني بك. قال إنك تقدر الكتب، والمكتبات، وتدفع أسعارًا جيدة.

فرد عليه قائلًا: كل مكتبة، ولها سعرها يا أستاذ. كل شيء حسب قيمته. أنا لا أحب أن أبخس الكتاب حقه، وأيضًا قارئه. علينا أن نتعامل مع الكتاب ليس كبضاعة. مثل الخيار والفجل. الكتاب له حرمه والمكتبة لها قدسيتها، وإن شاء الله سنتفق و... فقاطعه بملل واضح، وبنبرة صوت عالية أن: هيا إذن. تعال معي لترى المكتبة في المنزل، معي سيارة. فرد عليه أبو الصباح: امنحني نصف ساعة. سيأتي صانعي من جامعته، ويقف بدلًا عني. طوال خمسة وثلاثين عامًا لم يأت يوم كانت زاوية أبو الصباح فيه مغلقة. نفخ جدي دخان سيجارته قريبًا من وجه أبو الصباح، وما زالت نظراته تلاحق الفتيات، والنساء المارين بجانبه، وأمامه. كنت قد بدأت بتقليب الكتب الموزعة على الأرض، والرفوف بدائية الصنع، والمسندة على سور حديقة الأربكية الشهير. تناولت رواية لنجيب محفوظ أعجبني اسمها، وهو بدأ في تقليب المجلات القديمة المرصوصة كل حسب اسمها. آخر ساعة والمصور. أكتوبر وحواء. صباح الخير. روز اليوسف، والكثير الكثير من المجلات الرياضية المتخصصة ومجلات الموضة الأجنبية وسلاسل المجلات المصورة للأطفال. الخ.

وأكملت حديثي الى عمتي خديجة، وأنا أناولها علبة البن المحوج، والتي دأبت كما دائمًا تطحنه بيديها في البيت: نعم. هذا ما حدث عمتي. لقد كانت فاتن من سارعت إلى أخي أنس، ودثرته بالبطانية القريبة من يديها. قالت عمتي: ولكن أنت كنت مريضًا جدًا على ما أذكر، وكنت في الغرفة ذاتها؟ قلت لها:

لا. كنت مريضًا، ومستلقياً في حضن أمي على الأريكة العريضة في الصالة. كنت محمومًا، وأمي وأنا وفاتن لم ننم منذ ثلاث ليال، وفجأة رأيت أنس أمامي سائرًا نحوي متلفعًا بالنار. خارجًا من غرفة نومنا. كانت آثار النوم ما زالت على وجهه. ذاهلًا. متفاجئًا. لعله حلم ما زال يكمله، وكأنه يقول لنفسه، وسيستيقظ بعد برهة. ربما. فأنا وأنس لم يسبق لنا أن تحدثنا عن هذ ا اليوم. فقاطعتني عمتي: ابني أنس كان حساسًا للغاية، وأتابع: كانت النار من حواليه. نالت من ثيابه. شعره. أطرافه لهيب مشتعل، ولكن، وكأنه لا يحترق، أو لم تمسسه نار، أو لحق به ضرر ما. كانت فاتن آتية من المطبخ، وبسرعة طير، وبخفة نمر كانت تلتحفه. رامية به على الأرض، وتطفئ النار، والتشاعيل التي... لم تنل منه شيئًا. قالت عمتي: وكانت الخادمة. ما اسمها كان؟ فرددت عليها: مبروكة. كانت مجنونة. لقد فعلتها مرة أخرى، وأيضًا مع أخي انس. قالت عمتي. هذه الحادثة الثانية اذكرها جيدًا. فانا من كنت، ورأيته في سريره، والنار تحوطه. أجل. أذكر ذلك اليوم أيضًا. رددت عليها، وأنا أهز رأسي موافقًا. متذكرًا. نادمًا. ربما لم أسأل أنس أبدًا عن تلك الحادثة، أو ماذا قد حدث، لتأتي مبروكة، وهكذا فعل؟ إلا أني قلت بصوت خفيض. اجل مجنونة، وأبي ذهب بها بعيدًا إلى أهلها، أو السرايا الصفراء. ربما. أعتقد هذا. أليس كذلك عمتي؟ أليس هذا ما حدث...

فاتن. منال. أخي أنس. ألعابي البريئة بالكبريت، وأشياء أخرى كثيرة ربما حدثت، ولم أذكرها، أو أتذكرها، وجميعها تأتي إلي. تجتاحني ذكراها. أجتاح أنا ذكرياتها مرغمًا، ولا تغادرني منها رائحة الدخان، والحريق، والنار، والهسيس الذي لم يزل كامدًا. لم يخمد بعد تحت ستار الذكرى.

وبعد حوالي نصف ساعة، ولم يتخللها الكلام الكثير. إلا سؤاله عن سعر مجلة ما أو كتاب عن الأبراج. تقدم شاب أسمر. يحمل كتبًا، وبعض الدفاتر مع حقيبة سامسونيت سوداء. يظهر عليها القدم وكثرة الاستعمال، إلا أنها ما زالت تشي بمظهر عز غابر. قام أبو الصباح إليه، وبعد أن تصافحا قال له الشاب: كان هناك اجتماع مع عميد الكلية، وتأخرنا. فقال له أبو الصباح: خيرًا إن شاء الله! أهناك مشاكل؟ فقال صانعه: اجتماع روتيني، وهنا أشار إليه قائلًا: هو معيد في جامعة القاهرة. كلية العلوم. فنظرنا إليه، وقد ارتسم على وجه جدي اللامعنى. إلا انه كان متعجبًا. مستفزًا، وعلامة استفهام كبيرة ما يرى أمامه، وليس شابًا في مقتبل العمر تعلم كيف يسرق الحياة من الحياة،غير عابىء بما تهبه فقط ان أرادت.

قال أبو الصباح هناك مكتبة عليه أن يراها، وإذا أعجبته فسيشتريها. فقال صانعه: أين فتحي؟ وإذا تأخرت ماذا أفعل؟ فقال أبو الصباح. لم يستيقظ كعادته، وقالت أمك إنه مريض. أنت تعرف...

وذهبنا جميعًا أبو الصباح، وجدي، وانا.

وعند ميدان الحسين نزلنا من السيارة الفورد موديل 67، ومشينا بين الحارات القديمة والأزقة، مررنا في العطفات والزوايا. تغلغلت فينا روائح التوابل والبهارات. الطعم الحريف للفلفل الأسود. الشيح والينسون والكمون والريحان والحلبة، وباقي الأعشاب الطبيعية المجففة. تراقصت شموع الزفاف المعلقة على أبواب الدكاكين. المسرجة بقماش التل الأبيض والأزهار الصناعية القماشية، والمغلفة بالسوليفان. رائحة المعسل والتنباك وقرقرة الشيش على أبواب المقاهي. أصوات صبيان المقاهي بطلبات الزبائن، وقرقعة أحجار الطاولة، وتصايح اللاعبين. مهللين بحذق حركة قام بها أحدهم، أو شماتة لخاسر أمام رقعة الشطرنج. البيوت

الحجرية وأبوابها العتيقة المهملة. الأعمدة الأثرية القديمة المتبقية من سالف الأزمان وحقب خلت من قبلها الكثير. أم كلثوم وآهاتها الحارقة تغشى المكان. صوت أذان يبدأ من بعيد، ومذيع الراديو من الخلف يأتي، ويعلن بصوته الفخم، هنا القاهرة...

كل هذا وأكثر هو صورة حية للوحة من انتهاك عمرها ألف مئذنة، وأرتال من سنابك الخيل التي دبكت على أرضها. أطنان من الكتب، وبحور من الأحبار السوداء الصريحة منها، والسرية. عدة ألسن تنطق بكل اللغات، منها المصرية القديمة. الرومانية. العربية، التركية. الفرنسية، والإنجليزية، وآلاف آلاف من الصلبان التي حرقت على عتبتها، ومكتبات المساجد التي انتهكت.

ليعود الصوت الآتي من زمن مضى. زمن لم يطوه النسيان. مضى. أجل، ولكنه لم ينقض، ذهب إلى الوراء. في الخلف يقبع. نعم، ولكنه حاضر أبدًا. مندى. مبلل. لم تجف عنه قطرات الخزي والخيانة والعار والسرية العفنة المحملة بالخطايا، ومن كان منكم على عرش الوصايا والطوايا يجلس هنيئًا بلا خطيئة، فهيا. ارجموني. اجلدوني. هيا. اقتلوني، واقتلوه. ذلك الصوت الآتي من زمن مضى...

ألم تهمس عمتي في أذني ذات انتهاك: ملعون هو من باح بالسر. ملعون من كشف المخبأ. من فك المطوي. إياك وإخبار أحد بما ترى، أو تسمع. إياك وإعلانه على أي إنسان. في أي وقت، أو آن.

فاقول لها، وها أنا أمقت ما أقول: عمتي...

لقد رأيت وسمعت وشاهدت وحلمت واحترقت وأحرقت وكرهت وانتهكت ولعنت وتلصصت وسرقت وقتلت، بعد أن كذبت وخنت وكل الوصايا

والطوايا كسرت، لكني، ما يشفع لي عند ربي أني بكيت وبكيت وبكيت وانتحبت وشهقت وانفجرت في تعاقبات على صفحات، وعلى حشرجات، وشتاء، وعلى ارتماء دون خفوت.

ماذا حدث يا بني. قل لي. تسألني عمتي. فأقول، وأيضًا ما زلت أمقت ما أقول. أنا أريد أن...، ما حدث هو...، لكن الحقيقة أني...، وأريد أن أفشي لك بالاً...

عمتي. ألم تهمسي في أذني ذات انتهاك ألا أبوح، وأفشي، أو أقول؟

ألم تلعني كل من فعل، ويفعل؟

ألم...؟

وفعلت ما أرتضيه مرغمًا...

وأتيت بما أراه لازمًا...

ولازمت ما عهدتك به منهكًا...

والآن تنسخين ما قلت، وتعودين عما أوصيتني إياه؟

عمتي...

كأني على الخرس صرت. في الصمت ألتجيء. إلى الصمت أحتمي. ذلك الصمت الذي يحوي تواطؤًا ما. خرسًا طريًا يعشش في الأبدان عن قصد، وسابق انتهاك.

وصلنا إلى باب العمارة القديمة، وبنزق وسرعة ودراية دفعت الباب الحديدي. العتيق. المتآكل من الصدأ، ومن فتحة بين تعاشيقه الحديدية مددت يدي الصغيرة، وفتحت الباب. اصطدمت الأرواح قبل الأجساد برطوبة أليفة صفعت، واستسلمت لها الأطراف بحرية. صعدنا إلى الطابق

الرابع، وليس بالأخير من العمارة القديمة. إلى أن أطلت فوق رؤوسنا قطعة من سماء زرقاء ألقت على بلاط الدرج ضوءها المشع الحار.

وبعد أولى خطوات أبو الصباح داخلًا للشقة. تيقن مما هو مقبل عليه.

انفتح الباب عن عالم مدهش حميم، وذلك بعد ممر صغير في بداية مدخل الشقة. يطل من سقفها سراج مملوكي. معلق. موشى بالنحاس، والزجاج المعشق الملون، لتستقبلنا صالة كبيرة فسيحة دائرية الشكل. عالية السقف. تحيطها خمس غرف ينتصب أمام كل باب لها عمودان من الرخام المموج بألوان عاجية، ويتوزع في أرجائها أثاث يصطبغ بالقدم إلا أنه مليء بالحميمية. مشبع برائحة الذكريات. تتوسط الأرض سجادة قديمة مزخرفة. عفت ألوانها مما زادها بريقًا خاصًا خفيًا، وأكثر أصالة، وعلى أحد جوانبها الصالة الدائرية تنتصب المشربية الكبيرة. المزخرفة بقطع الزجاج الملون الدقيق، والذي يطل منها الضوء المنكسر الملون، والذي يمتزج مع المشكاوات النحاسية المضفورة مع الزجاج. المدلاة من السقف، والموزعة بالتساوي على الجوانب الأربعة من روح ثرية كبيرة تتوسط سقف الصالة العالي.

أشار له جدي بالتوجه إلى غرفة المكتبة بعد أن سأله كيف يحب القهوة، ودخلت أنا وأبو الصباح إلى الغرفة دائرية الشكل، والمغطاة بالكامل ومن الأرض إلى السقف بالأرفف، والكتب المرصوصة بعناية عليها. المجلدة بالغلاف القاسي، ومحفور على كعب كل واحد منها اسم الكتاب والمؤلف، وفي الأسفل، وبخط ذهبي أنيق نقش اسم صاحبه. **عادل المملوكي**. لم يعن الاسم له شيئًا، ولم يتبادر إلى ذاكرته أن صاحب المكتبة كان له شأن ما في عالم التأليف، أو الحياة الثقافية بنشاط ما.

سألني: من الدكتور عدل المملوكي؟

قلت: جدي لأمي، وهو... قاطعني أبو الصباح بهمهمة عالية تلاها سعال مفاجئ لم أستطع الإكمال بعده.

تجول أبو الصباح بين الأرفف، وعوالم الكتب والمجلات. الجرائد والوثائق، والتي استرعت انتباهه حيث كانت موضوعة في مجلدات كرتونية. قاسية تشبه تلك التي تستعمل في دوائر الدولة. تناول إحداها، وفتحه. فوجد مكتوبًا وبخط يد دقيق، وناعم، كتابات تفسيرية لأحد كتب كولن ويلسن الفلسفية. ظننت انه اللامنتمي. أطبقه، وتابع تجواله. رافعًا رأسه إلى الأعلى ليلتقط اسم كتاب ما هنا، أو مادًا يده إلى أقصاها ليتناول مجموعة مجلات مصفوفة هناك. بدا جليًا أنه قد وقع في هوى المكتبة، وما تحتوي من تنوع لا يخلو من خطة قراءة، ودرب بحث يشمل مسيرة حياة قارئ متعمق. مثقف. حقًا مثقف. قال أبو الصباح بصوت خفيض، الا أنه قد وصل سمعي.

تناول من يدي فنجان القهوة في الصالة الخارجية، وبعد الرشفة الأولى، وبدون النظر إلى شيء محدد، وباختيار دقيق للكلمات، والمفردات تشي أنه طالما قالها في كل رحلات صيده للمكتبات المعروضة للبيع سأل: كم تطلب في المكتبة؟ فأجاب جدي من فوره، وكأنه في تلهف للإجابة على هذا السؤال: كم تساوي المكتبة برأيك؟ فقال: إنها حوالي ألفي كتاب. مجلدة تجليدا فنيا. متنوعة الاهتمامات. غير متخصصة، وهذا عيب كبير حيث أننا نتعب كثيرًا في فرزها، وتوزيعها، والبحث عمن هو راغب لكل قسم منها، وهذا...

وهنا دلفت إلى الغرفة عمتي. تمسك بيدها عصًا من الأبنوس مزخرفة. لا تتعكز عليها بقدر ما توازن بها خطوات أنثى ذات ماض أخاذ. مليء بالعز والجاه والجمال. محفوف بكل أنواع الـ... توقفت عن متابعة ما شردت به،

وما كان يهم به أبو الصباح للقول، ووقفنا. مد ذراعه إليها حيث رفعت كف يدها إلى أعلى في حركة لم يدر لمَ! سلم عليها بعد أن أزاحت نظرها عني إلى أخيها. جلست على الكنبة الكبيرة في المنتصف جلسة عز، وبعد أن نظرت إلى القهوة أمامها. قام أخوها، وصب لها فنجانًا. تناولته بخفة، ورشفت أولى رشفاتها. مالت إليه، وقالت: تسلم الأنامل. مثل قهوة أمك الله يرحمها.

ولا شعوريًا تمتمت أنا وجدي وأبو الصباح وراءها: الله يرحمها ويرحم أمواتك. نظرت إلي بضحكة عينيها التي طالما أحببتها، وقالت متوجهة بكلامها إلى أبو الصباح: مالك يا حاج؟ ماذا يحدث؟ تتكلم عن المكتبة وكأنها صفقة خضار في السوق. فرد عليها أبو الصباح: معاذ الله يا ستنا. لا والله. أبدًا. فردت عليه: ماذا إذن. تتكلم عن المكتبة وكأنها ليست قيمة، أو ثمينة، أو مثل تلك التي يشتريها أصحابها فقط للمباهاة، ولا يعلمون ما تحوي، أو كما يقولون: كالحماريحمل أسفارًا. فرد عليها أبو الصباح: اللهم ابعدنا عنهم معرفة، وأكمل، وعلى شفته طيف ابتسامة، ولا تبعدنا عنهم تجارة يا ستنا. بهؤلاء الناس نأكل خبزًا. فضحكت عمتي ضحكة عالية مرسومة بأناقة صالونات الطبقة الراقية، وأكملت: ولحمة أيضًا يا حاج. فقط لا تنسنا إذا كان هناك واحدة. فرد أبو الصباح: وهل مثلك ينسى يا ستنا. فمالت برأسها جهة أخيها، الذي ظل صامتًا. يدور بعينيه بينها وبين أبو الصباح متعجبًا من مسار الحديث، والذي أخذ مجرىً آخر. توقفت يدها مع الفنجان في الهواء مع صوت الأساور الذهبية عندما أضاف أبو الصباح في نهاية ضحكته التي صلصلت المكان: أين كنت من زمان يا ستنا. فقالت بصوت حذر ونبرة مبالغ بها: ماذا تقصد من زمان يا أبو الصباح. هذا اسمك أليس كذلك؟ فرد عليها نعم ستنا هذا هو اسمي، وإن لم يعجبك أستطيع تغييره. ما رأيك ستنا مثلًا باسم هممممممم... أبو الليل. فقالت ضاحكة تلك الضحكة المليئة بالغنج والخفر، والحنكة في الآن ذاته ناسية حذرها

السابق: وقتها أنت هنا لسرقتنا، وليس لشرب فنجان قهوة، ومعاينة مكتبة الدكتور *عادل المملوكي*. أول مصري نال شهادة الدكتوراه من أكسفورد. فرد عليها: أعوذ بالله يا ستنا. أعوذ بالله. فقالت: والآن ما السعر الذي تعرضه في المكتبة؟ فقال: أنت حددي السعر، وأنا جاهز، ومد يده إلى جيبه يتناول المحفظة، وفتحها أمامها متقصدًا أن يريها المبلغ الكبير الذي تحويه. فقالت: لا. لا. ليس هكذا يا أبو الصباح. أنا أريد حقي فقط... وحق أخي أيضًا، وذلك مستدركة وجوده في ذات المجلس. فقال أبو الصباح: كم تريدين ثمنًا؟ وأكمل بعد وقفة لثانية: للمكتبة؟ قالت: هل نالت المكتبة إعجابك؟ فقال: تمامًا، ناسيًا كل خبرته وحنكته ونفسية الزبون، والتي تعلم كيف يتحكم بها لإتمام الصفقة كما يحلو له، وأكمل: نالت مني كل الإعجاب. فهي مكتبة جميلة. منوعة. ترضي كل الأذواق الخبيرة بالفن والجمال والـ...

وتلجلج قليلًا ليرى وقع الكلمات، وأين ذهبت منها، وأكمل، وتحوي الكثير من القيمة الثقافية التي فقدناها هذه الأيام. قالت: إذن غدًا، وفي العاشرة مساءً تأتي إلينا هنا في المنزل، ونكون قد تشاورنا أنا وأخي في المبلغ المطلوب، وأيضًا تشاركنا مجلسنا. غدًا الخميس، وقد تعودنا كل خميس من بداية كل شهر أن نقوم بجلسة أنس وفرفشة. ألديك مانع؟ فهز رأسه، وقال: أبدًا. فتداركت، وهي تنظر إليه بنصف عين: غناء وطرب ورقص وكأس خفيفة لتحرك الرأس وتفلت الخيال، وأيضًا. لنر. فهتف أبو الصباح: الله أكبر. أجل. فقليل منه يشفي...

وبين الابتسامات، والمعاني المتخفية وراء الكلمات جاء صوت الهاتف ليعلن وقفة ما في مسار الحديث. أشارت لي عمتي برأسها أن أذهب، وأرد، وبعد قليل رجعت اليهم لأقول لها: السيدة جيهان تريدك، فقلت لها: لديك

ضيوف، فسألت عن موعد الغد، فقلت لها: كل شيء على حاله، وأنك بانتظارها. ابتسمت عمتي في رضا وحبور، كأنها تعلن أن هذا هو ابني. تربيتي، ليس فقط يشبهني بالملامح.

وبخطوات يشوبها الحذر، والاستراق. كتم أنفاس، وتغييب رائحة للحضور. الجسد، وبكل خفة، ولذة أتقنت تفاصيلها اقترب من باب المطبخ، وأتسمع إلى مبروكة، وأمها التي أتت على عجل من البلد تقول: أجل، والله ما أقوله هو الصدق. كل الصدق، ان شاء الله اموت ان لم يكن، ويصلني صوت بكائها المكتوم، وفي الصالة الكبيرة كانت أمي تشرب الشاي، وتتناول الفطور المعد على عجل من أم مبروكة، كانت تاكل، ولكنها تخفي توترًا ما. عصبية كانت، وفي ترقب لما يدور الآن، وتعلم به في المطبخ. تقول أمها: وهل اخذ شيئًا منك؟ هل جرحك؟ هل... فتقول: لا. انا صاغ سليم. مثل الجنيه الذهب. فتقوم امها بلكزها في صدرها غاضبة. حانقة، وتتأوه مبروكة، وتبدأ ثانية نشيجها المكتوم. تسألها امها: هل حضرت بقجتك. هل هي جاهزة. قالت: اجل، لكن كيف لي أن أترك أولادي. أيمن وأنس. فيصلني صوت الصفعة، وهي تكتم صونها الغضوب: أولادك يا بنت الكلب. أولادك. وهل يوجد حيوان، وليس بأم يحرق أولاده. والله لو كانت ضبعة ما كانت فعلت ما فعلتِ، وكانت حنونة على اولادها اكثر منك. هيا. هاتي بقجتك. هيا. الله يستر. لنرى ماذا هم فاعلون؟ ثوان معدودة، ويعود قيظ الصمت يلتحف المطبخ، والممر، وأنا. أعود متسربًا من مكان استراقي الحدث، وأعود الى أمي في الصالة. كانت تلوك آخر لقيماتها من الصحن الذي امامها، وهي تنظر الي قائلة: اين كنت؟ وتهرب نظراتها الى كاس الشاي، فأقول: كنت أحاول الأغتسال في الحمام، ولكن المياه باردة جدًا. ألا يمكن أن نسخنها قليلًا.

وفي اليوم التالي، وحوالي الساعة العاشرة كان أبو الصباح أمام الباب الخشبي القديم لبيت السيدة خديجة سليلة الحسب والنسب. اخت الدكتور عادل المملوكي، وقد تناهى إلى سمعه صوت العود والدف والناي المصري الآتي من الصعيد الجواني. صوت الصاجات يتراقص مع صوت الطبلة، وصوت أحدهم يشدو طربًا ما تيسر من...

قال أبو الصباح: لم تصدق أذناي ما أسمع، وكأن بي صمم. أهو حقًا ما يصل إلى. أم هي الكأس التي تناولتها عند الخواجة مانولي في حارة السكاكيني قد لعبت بي كما تشاء؟ يلعنك يا مانولي. أنت والبوظة الزبالة التي أعطيتني إياها. تحسست جيب السترة من الخارج أطمئن على قطعة الحشيش التي لففتها جيدًا، وسمعت صوت السوليفان، وقلت إلى نفسي سوف أقوم بإهدائها إلى السيدة خديجة. من المؤكد ستقبلها، وسوف تدعو لي على هكذا مزاج، وهذا الكيف العالي.

دققت الجرس، وذلك عندما تخافتت الأصوات، وهدأت. سمعت خطوات قادمة، بعد أن تضاءلت الأضواء في الداخل.

ويتابع أبو الصباح همسًا في أذني، وهو مستلق على الفراش. مغيبًا عن العالم. غائبًا في صوته، وصدى كلماته. لربما بفعل الحشيش أو الويسكي، أو كلاهما. قال: إنها أمي. تأتي بخطواتها الهادئة. صوت حفيف قميص نومها الأبيض الذي يطير خلفها بفعل هواء خفي مصدره. أنا على سريري، والنوم قد بدا يداعب جفنَي. تأتي أمي، ومن خلفها الضوء السهاري الذي دأبنا على استعماله عند النوم. أخاف العتمة. الليل. الأشباح المتراقصة على جدران بيتنا. أنا وأمي نرهب العتم. تأتي إليّ في الليل، وتلتصق بي عندما تهاجمها الكوابيس وترتجف. في سريري تجد الدفء والأمان، وأنا أيضا، وعندما تبدأ

الأشباح تصحو على جدران غرفتي العارية. أهرع، وألتجئ إلى صدر أمي، ورائحتها الأليفة.

بيني أنا، وأمي، والعتمة، والأشباح، والأحضان الليلية، والسرير الدفيء قصة محرمة.

... بدأت في سن الثالثة عشرة، أو ما يقاربها. أبي قد مات، وتركنا أنا وأمي وحيدين. كانت الزوجة الثانية. السرية عن زوجته، وأولاده، وباقي أفراد عائلته، وعندما حانت ساعته كان على فراش أمي، وقد أودعها سرًا ألا تذهب إلى أفراد عائلته أبدًا، حتى وإن كان بعد وفاته، حتى وإن كانت الحاجة تفوق الصبر والرحمة. حتى وإن... إنهم فاسقون. حاسدون. جشعون، وأكثر. إلا أنهم علموا بزواجه، وأخبروه عندما ذهبت أمي إليهم في صباح اليوم التالي لوفاته. جاء أولاده على عجل، وظلوا حتى أواخر الليل في الشقة، وبعد أن هدأت الحركة في البناية والشارع أخرجوا أبي، وذهبوا به إلى منزل العائلة، ومن هناك أعلنوا خبر وفاته، وشيع الجثمان، وأقاموا سرادقًا كبيرًا. فخمًا يليق به، وباسم العائلة، ونكران كبير لما فعله أبوهم في السر، وكون لهم أخًا غير شقيق على أعتاب الرجولة.

كانت ليلة مهيبة. في الظلام جالسون، والأب مسجى في الداخل على فراشه. مرتديًا بيجامته البيضاء القطنية. فوقه غطاء أبيض. من قمة رأسه إلى أسفل قدميه. إلا أن طرف قدمه اليمنى كانت ظاهرة من تحت الغطاء. أصابعه الطويلة. المتناسقة. المقصوصة أظافرها بعناية، ودقة. بيضاء بشرة قدمه، وناعمة. ملساء كعبها.

رائحة البخور التي تملأ المكان. صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد المنبعث من الكاسيت، يتلو القرآن. العتمة التي تلتحف البيت، والشفاه الملتصقة ببعضها أنا وأمي من الصمت. صمتنا كان عزاءنا الوحيد

للفقدان، ومحاربًا للخوف أيضًا، ودقت الساعة اثنتي عشرة دقة، وفي نهايتها أعلنت أمي أنها ذاهبة لا محالة إلى بيته الأول.

كان الشقاء حليفنا، وضياع حقوقنا من أبي على يد إخوتي وزوجة أبي.

إلى أن أتى يوم، والحزن كان يعتصر الفؤاد. إنها من أهوى، ومن أحبها كثيرًا، ولا ادري إن كانت أيضًا تعشقني كما أنا. أريد لقاءً دونه الفراق. أريد الرفقة، والأحضان، والدفء، وليس الجفاء، أو البعد. أريد، ولا أعلم إن كانت هي أيضًا تريد.

رأتني أمي هكذا. لفتني بذراعيها، وقالت لي بصوت خفيض. يشبه الهمس: ابني عاشق. ابني رجل يحلم بامرأة، ويشتهي اللقاء. فرددت، والدموع تسيل على وجنتي: أمي. هي من أهوى...

فقالت لي أمي، وكأنها لم تنصت لما أقول: ابني. حبيبي. فؤادي. هو أنت من أهوى، وأنت كل منالي في الحياة. أيًا كانت من تحب لن تعطيك ما أملك أنا. أنا التي صنعتك. مني أنت خلقت. تكونت. أعضاؤك. روحك. شهيقك مني، وزفيرك إلي نسيم. أنت مني، وأنا لك. روحي. عقلي. حياتي. جسدي. ماذا تريد منها خذه مني. امتلكني فأنا لك. قلبي. يدي. صدري، وحليبه الذي لم يجف بعد منذ ولادتك. بطني، وثنياته إثر ولادتي بك. سري الأخير الذي أتيت منه، خذه. من هنا أنت رأيت الحياة، وإليه أنت تسير. أنا لك. طوع أمرك. يداك القويتان. الخشنتان تذكراني بيدي أبيك. إنهما تهصران جسدي. كما تفعل الآن. رائحة جسدك تملؤني، وأغترف منها أكثر كلما ضممتني. كما تفعل الآن. لسانك. شفتاك. فمي داخل فمك، واللعاب. لعابك عسل من انهار الجنة. أشربه، وأطلب المزيد، ولا ارتواء. كما تفعل الآن. آه. هذا ما هو أيضًا تريده. أريد، ولن يزيدك منه أحد غيري. أنت لي. أنت مني، وأنت أتيت إلى الحياة من هنا، وها أنت تعود إلى الحياة، وتعيدني أيضًا من هنا. انه لك. ادخل فيّ أكثر.

عد إلى الأصل. إلى أساس الخلق. إلى ما هو حقيقة. هيا. أكثر. هيا. أفرغ فيّ كل شحناتك الفائضة. تدفقات الحياة فيك، والعنفوان. أنت من أهوى، ومن أهوى أنا، هو أنت. هيا أكثر. لن أشبع أبدًا منك، ومن حلمك غير القابل للارتواء عطشه.

وعندما تخافتت الأصوات، وهدأت في الداخل. سمعت صوت الجرس الذي دققته منذ برهة. خطوات قادمة، بعد أن تضاءلت الأضواء في الداخل.

وتجلى الحسن مزهوًا. منتشيًا في انفراج باب الشقة، وأمامي تراءت لي صورته مقبلًا نحوي. في لهفة صوبي. يلقاني متمرغًا بسوائله الفائحة، ورائحته الحارة. احمراره الشهي يعانق. زغبه يتلمس أسرار البقاء على قمة النشوة متربعًا، ومن تحته دياجير الظلام العذري في انتظار الغازي. الفارس. المقدام.

هي كأسك اللعينة يا مانولي الكلب. تفوهت بما لا أدري، وإن كان غير ملائم. لست مدركًا إن تناهى إلى سمعها شيء: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فردت علي الفتاة السمراء ذات العينين السوداوين، والقد الهفهاف، والصوت الضاحك اللعوب: وعليكم السلام. أظن انك أبو الصباح، ولم تنتظر جوابًا: ستنا خديجة في انتظارك، وعلى أحر من الجمر. تفضل. ادخل، وشدته من ذراعه إلى الداخل.

وانفتح الباب عن رائحة البخور، وسحبه الموشية المكان بالسحر والغموض. عالم مدهش. حميم، والموسيقى المشبعة في الأركان، وإن توقفت عن الانتشار لبرهة، فما تزال علاماتها تسبح مع أشكال الدخان التجريدية في سماء المكان. الصبيان والبنات العذارى جالسون على المخدات. منتثرين على الأرض لآلىء وزمردا ومرجانا، والياقوت على الوجوه. كؤوس الشراب بين الأيدي ترتفع بمزاج وخفة. تلامس الشفاه

بعشق القبل. تهبط بتثاقل فخم، وتمايل. تفتعل ملامسة المحظور. على اليمين منها، والشمال. لتتشكل دائرة لا مرئية من التحرشات العذبة، والمقاربة بين الأجساد. نواتها ضرب المسموح بحجة الشراب اللذيذ، وسحره الخفي.

عمتي خديجة في زهو الكمال جالسة بينهم. تمد يدها مرفوعة بأناقة إلى أبو الصباح، والذي لم تغب عنه الحركة هذه المرة، فلثمها بخفة قدر مستطاعه. إلا أنها جاءت فظة. غير مدربة، وخالية من النعومة الأرستقراطية التي يجهل مفاتيحها، فلم تتمالك نفسها الست جيهان من ضحكة عالية. منفلتة. مشبعة برائحة كأس الويسكي التي تتناولها. لم تترك عمتي يده، بل مالت بها وجسده إلى أن توسد إحدى المخدات، وجلس بجانبها. بينها وبين الفتى الأسمر نسيم، ومن أمامه تلك الفتاة التي تجلت له عند الباب. أشارت السيدة برأسها طلوعًا وهبوطًا مرتين، وانسربت الألحان متدفقة، والتي لا يعلم مصدرها من أين؟ تمايلت الرؤوس. ارتفعت الأيدي، وتكاتفت مع الأخرى، صبيانًا وبنات. اهتزت الأجساد نشوى، وتغافلت العيون عن التحرشات بينهم سكارى. متلمسة اكتشاف اليقين. متلامسة لتحسس الكمال مع الآخر، والسيدة محتضنة العود التركي القديم، ونسيم يلاحق بعينيه الخضراوين لفتاتها. لينتقل بين اللحن واللحن بنعومة، وشفافية لا تنقصها الدراية بالأوزان والمقامات، لترد عليه الفتاة التجلي، وبصوت أنثوي يافع، والسيدة تميل عليّ أحيانًا من جهتها، وهو. الصبي الأسمر يلامس بساعده ذراعي، وهو يرفعه ليغطي أذنه في حركة مسرحية مدروسة. كأس الشراب التي هبطت من السماء أمامي على طرفي جناح ملاك.. أتناولها، والآهات تملأ الصدر والروح من الصوت الأنيق. الطروب.

تخرج الحي من الحي تعتق الحي من الميت الآهات الآهات الكلمات الألحان الوجوه الشراب الدخان المتصاعد من الشيشة الدائرة في المجلس قرش الحشيش الجيد عالي المزاج العمر الفتيّ من حولي يغترف مسام الشيخوخة الخائرة المتطايرة بعيدًا ليحل مكانها الشباب الصبا العنفوان المتنامي.

ويقول أبو الصباح لعمتي خديجة، والحاضرون في دقائق الصمت بين اللحن والآخر: تجول عيناي في المكان في اكتشاف آخر للتفاصيل. المكان نفسه، والتفاصيل تتغير بسرعة أمامي. تتحول. تأخذ مسارًا آخر. تتبدل. تدور، وتنقلب رأسًا على قدم، ليدهمني من كنت أخشاه، ولا أترقبه، ولكنه يرقبني. يجوس وجهي، بل جسدي بتلك العينين، الأنيقتين اللتين تعودتا أن تنغلا من بئرٍ للسخرية عكرٍ ليطفحا بمرارةَ شوكٍ للصبار قاسٍ، وفي مواتٍ يحيا.

لربما يتلصص علي، وعلى لغة خفاء جسدي. أكادُ أراه دانيًا مني. قاصيًا عن مداره الخاص نحوي.

أعينا وجه الجحيم تشبه إلى حد ما عيني وجه الجنة؟

ثمة ملامح تكاد تبين، والعينان يغطيهما شجر كث كثيف، والتفافاته تشبه الدكنة.

هكذا، وفقط. تدنو مني شاهرة عينيها لتطأ بهما أنحائي، وعقلي ينبئني أنهما كخط الاستواء فقط في الذاكرة نحتفظ به، ولا نتعثر عندما نتخطاه.

لا. هم، وهكذا يتناءون، وفقط ناسين ما كان منهم عند أول منعطف نحوي، وحزنهم . إن كان ثمة حزن . يتركونه مع البخشيش على طاولة مقهىً عابرٍ وسخيف.

وأنا أوشك على التساقط في غاباتهم غيرالأليفة.

و هم في وثوق يسيرون إلى تساقطي. يلملمون بقايا أوراق خريفٍ عبَر على بوابة الشرق فيّ، وتقمصاته عبر أكثر من خريف.

من المتكلم الآن أنا أم الملامح التحديق التلصص الجحيم؟

القول قولهم، ولست بلسان حالي. هم من أدمنوا القول، والكلام الكلام الكلام.

أم هو الحشيش الجيد من اخذ بيد الحال، والقول له...؟

أم هو لي...؟

أم...

لا. لا. ليس ما قلت هو الـ...

وليس أيضًا كل ما سوف يُتلى عليكم...

هو الفعل الخدر اللذيذ الذي يسري بالأبدان الآن، والرقص التمايل الأجساد الفتية الفائرة بالحب والعشق، والاكتشاف للمتع السرية. المتوارية عن أنظارهم في هذا العمر الغض.

وجه أسمر، وعينان خضراوان تنسجان تفاصيل الحياة كما يحلو لها، البكارة تتأجج. تتأهب لتلك الفتاة القادمة توًا من فيء سدرة المنتهى. الألحان المنسابة في العروق، والأجساد المتمايلة نشوى. الحشيش الجيد، والأضواء. كلمات الأغاني. من كل هذا، وأكثر تشكلت ملامح القول.

ويقول، وأقول، ونقول، والله يفعل ما يقول.

ويكمل لي أبو الصباح، وهو ما يزال ممددًا غائبًا بروحه. حاضرًا جسده في المكان، وتفاصيله: تتقدم أمي مني بجسدها البض الأبيض المياس. تتجه نحوي، وهي تتمايل راقصة على أنغام الموسيقى في المكان. تسير نحوي. تنظر إلى ستنا. إلى الفتية، والفتيات، وهي في الغنج والدلال الذي طالما رأيتها عليه عندما نكون معًا. النظرات بغمزاتها ذاتها. نعومة الحركات وبذخ الجسد نفسه. التمايلات بالحنايا. باللدونة الممشوقة المتفجرة.

تأتي نحوي، وبدون خفر مصطنع، أو حياء.

هي العاشقة المتيمة. أنا الحبيب السري عن الملأ. أنا الرغبات المحرمة تنتزع كل التابوات من القاموس المقدس. آه أمي. ماذا أنت صانعة وابنك. آه أمي. يا حبيبتي السرية. العاشقة. المدنفة. أين أنت مني الآن. أين أنا من الحياة ودونك. أين الليالي والتي كنا على العشق فيها والمحرمات منا الرفيق الدائم الملتبس...

أنا ها هنا. أمامك، وبجانبك. أتجرع لذعة المرارة. العباب المجهول. على حافة الكون الملحي. الشاسع بلا حدود. أشتاق إلى روائح الخصوبة في عشتار الآلهة. على عتبة تقديس إيزيس. في حضن لعازر، والنبي المنتظر. المنتهك في حضرة يسوع المسيح.

أنا، وأنت في الانتظار سفين بلا نوتي...

وترتمي أمي بجسدها الشهوي العاري في أحضاني على الملأ من الجمع حولي، والكل في غفلة السكر يرتع، أو في غمام الحشيش يطير عاليًا عاليًا عاليًا.

وأنت أيتها الحروف الكلمات المفردات، والأفكار أيضًا. ترى أتهاجمك التجاعيد؟ أتشيخين؟

فأنا أعرفك وأنت عارية. فأنّى لي أن أصدقك، وأنت تلبسين ثياب الحكمة.

الكتب الملقاة على الأرفف تهبط عنها. شائخة كانت، وفعل القدم قد نال منها مراده. السنون كانت قد أخذت منها، ومن صفحاتها وكلماتها وأفكارها أكثر. تتقلب صفحاتها. تسير على الأرض. تتسلق الحيطان. تقفز عن الكراسي والطاولات. تلاحقها المجلات والصحف. ما أراه الآن اللامبالاة المرتسمة، والاستهزاء من القاريء المستتر بين الصفحات إلى الكلمات المتناثرة على الصفحات والصور الغلاف. الكتب ذات الأرواح الشائخة. العاجزة. المتطايرة. المختزنة من فعل القراءة والكتابة. تسير نحوي. تتقاذفني بالمعنى. تسخر بي ومن المحتوى والقاريء. تتهامس في استهزاء واضح. تتنافس على انتقاء الصفة التي عليها أن تلحق بي. ترى أحقّار قبور الكتب هو. أم حارق أفكار. لا. انه تاجر كتاب، وليس بتاجر. انه المدعي للثقافة وحامي حمى الكلمات. هو أبو الصباح وليس فيه من الصباح شيء. لقد تعودنا العشق لقاريء كلماتنا وأفكارنا. أحداث رواياتنا وقصصنا. جنون شعرائنا، وإلحاد متصوفتنا. تاريخنا المكتوب المسجل على أوراق السلطة المدموغة صولجانات وتيجانا وسيوفا. طيور أفكار الفلاسفة التي ترحل وتهاجر من صوب إلى حدب في عشق ووله للحقيقة. العلم وأسراره ومعرفة أصل الأشياء ولماذا وكيف. أن نعطي ونمنح ونهب دون مقابل. دون ثمن. من قال ذلك؟ من يجرؤ على قول هكذا فكرة؟ نحن في انتظار دائم لا يمل ولا يأس منه. نكاد نشبه انتظار غودو. نحن في توقع سرمدي لقاريء يعرف ويمنح ويصل ما هو مكتوب إلى آخرين. ربما على حق أو لا. ربما على صواب أو خطأ. لا يهم القرار. يهمنا الفعل والأداء والثقة والاقتناع والسلوك لما أنت مؤمن به. شاهد عليه. أما اللا فعل. اللا حدث. اللا انحياز. اللا موقف. عندئذ أنت محكوم عليك بالخطيئة العظمى. مذنب وبدون

محاكمة. فأنت المجرم الجاني الذي أقدم على الجرم في حقنا، وما من شفيع أو محامٍ يدافع عنك أمام نفسك من نفسك.

وتتزايد الأصوات في تداخل شجي. سور القرآن الكريم وآياته يتغنون بها ويصدحون. يخلقون منها معاني جديدة لم تكتشف بعد على أعتى المفسرين وأفهمهم.. آياته تتناثر كاللؤلؤ المكنون بين شفاههم، وحناجرهم تصدح وتخدش حياء المستتر، والمقدس.

سيدتي. ستنا خديجة. أنا. أتسمعينني. أنا. أقصد هو في الحقيقة، وتموت الكلمات على شفتيّ المخدّرتين، وتتباعد أطرافي عني في دعابة غير مستحسنة.

أنا. أقصد. هو الحشيش الجيد أم أنا الجيد والحشيش هو الحشيش وأنا الجيد. آه، ويتعالى الضحك في المكان ليرد عليّ نسيم. لا سيدي. الحشيش هو الجيد. الحشيش الذي أنت أحضرته هو الجيد. إذن أنت الجيد، وليس الحشيش. والحشيش هو الجيد، والضحك يتزايد، ويلتحف المكان سحابة تلفنا. تحتوينا. نتغلف بها، وتطير ونطير. تسبح بعيدًا هناك. تأخذ من الزمان جناحًا، ومن المكان جناحًا آخر. تحلق. تبتعد، وتنأى.

وفي غفلة عن الآخرين أميل إلى ستنا خديجة واهمس في أذنها: أريدك وحدك لدقيقتين. فتهز رأسها أن نعم، وتهمس: قابلني بعد قليل في الغرفة الأمامية للحمام الرئيسي، تشير بعينها إلى نسيم وتقول له بصوت خفيض أن خذه إلى الحمام. يريد أن يقضي حاجة. فينهض الفتى الأسمر مستندًا على كتفي وهو يحاول التوازن. مخافة السقوط، وأنا أيضًا أكاد أميل إلا أني توازنت بكفه الممدودة إلي من خلال سحب الدخان الممتلئ به المكان.

تأبط ذراعي برفق. فسرت في جسدي قشعريرة امتلكتني، وسررت بها. قلت له بعد أن ملت برأسي إلى جانب أذنه. أشعر بالبرد. فبادلني الهمس وقال: لا يوجد برد سيدي. هل تحب أن ترتاح قليلًا في غرفة ستنا خديجة. فهززت رأسي، فولج مباشرة إلى باب الغرفة، وبرفق شديد أراحني إلى السرير الذي يتوسط الغرفة، ومال إلى رجلي ورفعها إلى السرير بعد أن نفض عني حذائي، وبحركة جميلة شاهدت الملاءة تطير فوقي وتهبط على جسدي تلفني. إلى أن جلس بجانبي على طرف السرير والتحفت أصابعه كفي الكبيرة، وبدأ فركها عل الدفء يعرف طريقه إلي. دقائق، وشاهدت عيني الست خديجة فوق رأسي تحدق بي في حنو بالغ. لا تخلو نظراتها من مشاعر أم تتفقد طفلها، والذي ليس بخير.

قلت لها بصوت هامس: البرد. البرد. أنا أرتج...

فاقتربت مني أكثر بعد أن تنازل الفتى نسيم عن مكانه إليها، وأحكمت الغطاء حول جسدي، وقالت لنسيم: أحضر الغطاء الصوفي من الخزانة الثانية. تجده في الأسفل. أزرق اللون.

البرد. البرد ستنا. غطيني. إني أرتجف. من أين يأتي هذا الهواء البارد. إنه في كل مكان. يهاجمني. يأكل أطرافي. يسير في دمي، وتحت جلدي ينمو. لا يغادرني.

فهمست بصوت رقيق: ماذا حدث لك؟ هل هذه أول مرة تشرب أو تحشش فيها؟ ما بك يا رجل؟

فقلت بشفتين مرتجفتين: إنه هو. من آتاني، وقال لي ما قال. آه. البرد. البرد ستنا. البرد.

من أتاك يا رجل؟ ماذا تقول. أحضر الغطاء الآخر يا نسيم أرجوك، وبأناملها الرقيقة، وطرف كمها بدأت تمسح العرق الذي كان يسيل على وجهي. أهدأ قليلًا. لا شيء ذو أهمية. انه الحشيش الجيد الذي أحضرته، وتبتسم.

لا ستنا. أنا أعرف. ليس هذا فعل الحشيش. هو من هاجمني، وبدأ تعريتي. الوجه التحديق التلصص الذي يغرفني الآن. ألا تريه انه هو. انه هنا. هو ينظر إلي الآن. ينظر إلينا، ويهمس بالكلمة ذاتها. لا يتوقف عن ترددها. اخرسْ. توقف. عليك اللعنة. اذهب عني. اخرج مني. من الغرفة. مالك لا تتحرك. قولي له. قولوا له. نسيم. خذه إلى الخارج. اطرده من هنا. من المنزل. هيا. أرجوك. قم. تحرك. أغلق فمك اللعين. لا. لن أقول ما قلت. لن افعل ما تقول. لن أردد ما تملي علي. لا أريد. لا... وأسقط، ويسقط معي السرير ويد ستنا خديجة ونسيم والغرفة والمنزل والحي والقاهرة كلها تسقط في بئر. في هاوية. في السحيق، وليس من قاع. السقوط السقوط السقوط في غياهب الإشارات التي طالما نأيت عنها، وأنكرتها، ولم تنكرني. بل دثرتني، وانتهكتني. أنت أيها الوجه. ذاته. الملامح. ذاتها. الجسد..جسدها. ذاته. لقد عرفتك. أنت... يا أمي.

نظرت الست خديجة إلى نسيم الواقف بجانبها وهو لم يزل يرتجف مما يراه. قالت له: لا بد أن نحضر طبيبًا في الحال. اتصل بخالي الدكتور نصري. هل تعرف رقم هاتفه؟

ليرتفع من الخارج صوت أذان الفجر في هدأة الليل وصفائه الذي تعكر. الله اكبر. ألله أكبر. أشهد أن لا اله إلا الله.

عمتي، وعود على ما بدأناه...

وأوبة ثانية بدون رجوع... هذه المرة.

أقول لك: وما الكلمات، كلماتك، إلا كما البرق تخترق، أو دماء تسيل إلى الوريد من الوريد إلى قيعان مبقورة القداسة. قوسك كما القزح يقضم السماء، غير الطقس. تقاطعين قلبي، وتخترقين القتل.

ويتقد، ويورق ميقات قديم للقطاف. للقضاء. للقدر. لا فرق.

إيقاعات تقادم الكلمات فيّ. أقفو فوق تعرقاتها نبضات القاتل. لست أنت، ولا أنا.

أسقط مشنوقًا، أو مخنوقًا من قبرة للوقت. سرمدي أنا، والانتهاك انطبق علي.

فتقولين: ولا يزهق السحيق فينا حتى يراق على طبقاته الانتهاك.

وتقولين: غروب للانتهاك هو. تدفاق، ولا عودة.

وتقولين: شاق علي إهراق الكلمات.

فأقول، وأقول، وأمقت ما أقول:

هنا فراق بيني وبينك.

تنويه

وما أيمن ماريديني، واسمه، إلا فخ روائي من بين أفخاخ أخرى كلها مشروعة، وكلها تندرج في النص. في الذات. في النفس، والجسد. يمكن أن تحل محله الضمائر كلها. أنت. أنتم. نحن. هم. هن، وكلها لها مطلق الحق في الوجود، والكينونة. في الصياغة، وإعادة الكتابة للنص كما يحلو له... الضمير.

أيًا كان ضمير جسم الكلام. ضمير الكلام الذي هو جسم.

علينا كتابة ما تمت كتابته بضمير آخر.

كل، واختياره للضمير المناسب له.

هنا يكمن الخلاص.

هنا يكمن الطهور من التعميد في نهر الشحوب، وتتصل الأنا بالآخر.

أيمن ماريديني

دمشق، لندن، القاهرة

2008-2010